



المملكة العربية السعودية
جامعة الملك سعود
كلية العلوم الإدارية
مركز البحوث

الوجه الحضاري لتجربة الاقتصاد الاسلامي في العصور الوسطى

الدكتور
وجدي محمود حسين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



كلية العلوم الادارية
مركز البحوث

الوجه الحضارى لتجربة الاقتصاد الاسلامي

في العصور الوسطى

دكتور

وجدى محمود حسين

مقدمة

بزغ الاسلام في فترة من الزمن أدرجها مؤرخو التاريخ الاقتصادي لحياة الامم فيما عرف بالعصور الوسطي ، وهي فترة لم تستطع الحضارات التي عرفها المجتمع البشرى قبلها أن تكفل لحياة الانسان رفاهية حقيقية يسودها العدل والكفاية والامن والرخاء ، ففي أوروبا كان يهيمن نظام الاقطاع على المجتمع بما احتواه من تأخر في مستوى الانتاج وعلاقات الاستغلال والعبودية فضلا عن انتشار الاوبئة والجهل والتأخر الفكري كما كانت الجزيرة العربية ذاتها - مهد الاسلام - تعيش حياة قبلية بدائية لقبائل رحل تعاني القفروضالة الرزق ، وتقتسم الموارد المحدودة المتاحة على سبيل المشاركة ، وتعتمد في كثير من الاحيان علي الغزو والاغارة على موارد العيش .

وعند ظهور الاسلام ، بما أضاء به حياة الانسان الفكرية والاجتماعية والاقتصادية من قيم وأفكار ونظم ، شكلت حضارة كاملة تمثل انجازا كبيرا في مسيرة تقدم الانسان وارتقاءه نحو غاية تحييطها مفاهيم واضحة لموقع الفرد من الكون والخالق والمجتمع ، كما كان الامر بمثابة ثورة فكرية واجتماعية انعكست علي واقع النشاط الاقتصادي وعلاقات الانتاج في الامة الاسلامية ، وكان في مبادئ وقيم النظام الاقتصادي الاسلامي من واقع القرآن الكريم والسنة واجتهاد مفكره في المسائل الاقتصادية ما أثمر وبلور تجربة رائدة في التاريخ الاقتصادي للامم ، تؤكد الدور الحضارى الكبير للنظام الاقتصادي الاسلامي في النهوض بمستوى المعيشة والتقدم في مختلف قطاعات الانتاج من حيث تطور فنونه وتحسين علاقات الفئات المساهمة فيه نحو الرفاهية والعدالة وتكافؤ الفرص .

ويهدف المقال في المقام الاول للكشف عن الاسهام الحضارى لتجربة النظام الاقتصادي الاسلامي خلال فترة القرون الوسطي ، بالمقارنة علي ماساد من نظم وعلاقات الانتاج خلال الفترة المذكورة سواء في أوروبا أو البلاد التي انتشر فيها الاسلام .

كما يهدف بحثنا الي بيان أثر التحول الاجتماعي الذي أسفرت عنه مبادئ الاسلام في المجال الاقتصادي ، علي السلوك الاقتصادي والعلاقات الانتاجية والاهمية النسبية لمختلف الانشطة الانتاجية في ظل الدولة الاسلامية ، هذا فضلا عما ساهمت به حضارة الاسلام في هذا المجال من تحقيق التقدم والمدنية والانماء الاقتصادي لبلاد أوروبا التي جرت بينها وبين المسلمين احتكاك سواء من خلال التوسع الاسلامي بجنوب أوروبا أو من خلال الحروب الصليبية .

وفي مباحث ستة نقسم موضوعنا كالاتي :

- مبحث أول : موقع الحضارة الاسلامية في التاريخ الاقتصادي .
- مبحث ثان : ظهور النهضة الاقتصادية للاسلام مقارنة بظهور النهضة الاقتصادية لأوروبا .
- مبحث ثالث : الاقتصاد الاسلامي ثورة اجتماعية اقتصادية مبكرة .
- مبحث رابع : تطور الانشطة الانتاجية الرئيسية في ظل الاسلام .
- مبحث خامس : السياسة الاقتصادية والمالية وإدارة أموال المسلمين .
- مبحث سادس : التأثير الحضاري للاقتصاد الاسلامي علي أوروبا والعالم .

خاتمة

المبحث الاول

موقع الحضارة الاسلامية في التاريخ الاقتصادي

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل علي
العالمين" • (البقرة ٢٥١) •
صدق الله العظيم

نتناول في هذا المبحث :

- * أهمية العامل الاقتصادي في التاريخ •
- * جدوى التاريخ وأهمية العرض المحايد لمقومات التجربة الاسلامية في الاقتصاد •

١ - أهمية الاحوال الاقتصادية في التاريخ والحضارات :

ان طبيعة مسيرة الانسان عبر مدارك التقدم في المجتمعات البشرية ،
تتنوع من مرحلة لاخرى بحسب ظروف المرحلة وتطلعات الانسان وامكاناته ، ويشكل
التاريخ الاقتصادي لتطور سعي الانسان في مواجهة مشكلته الاقتصادية ، محورا
يصفه البعض بأنه القاعدة والاساس في تطور النشاط الانساني عبر التاريخ العام (١)

فمن سعي لتوفير ضرورات المعيشة في حياة بدائية الي تحكم قوى الطبيعة وتسخير
للموارد لتعزيز القوة الذاتية ونفوذ الجماعات ، الي منافسة بين الدول تأخذ
شكل صراعات علي موارد الثروة والنفوذ الاقتصادي •

(١) د. أمين مصطفى عفيفي ، د. أحمد عبدالكريم ، تاريخ أوروبا الاقتصادي ،
مكتبة الانجلو المصرية ، ط ٢ ، ١٩٥٤ م ، ص ٦ •

وقد أكد ابن خلدون علي أهمية العامل الاقتصادي - ممثلا في النشاط العمراني من تعمير الارض وتنمية الموارد زيادة ثروة الامة - في التعرف على الاخبار الحقيقية لتاريخ الامم ، فجاء في مقدمة ابن خلدون (٢) : " ان التمييز بين الحق والباطل في الاخبار لابد فيه من النظر الي الاجتماع البشري الذي هو العمران " . كما قرر أنه " لاعزة للملك الا بالرجال ، ولاقوام للرجال الا بالمال ، ولاسبيل الي المال الا بالعمارة ... " و " المال بالخراج والخراج بالعمارة ، والعمارة بالعدل ... "

وللتطور الاقتصادي مكانته التي شغلت مؤرخي الغرب في التعرف علي مقومات حياة الناس في العصور المختلفة وأساليب مواجهتهم لصعوبات السيطرة علي البيئة لاشباع حاجاتهم من خلال نشاطات الانتاج المختلفة ، وطبيعة العلاقات التي تحكم فئات الافراد المساهمين في تلك النشاطات مما يضاف الي قيمهم وثقافتهم ووعيهم الفني فيشكل قوام حضارات الشعوب عبر الزمن .

وقد تصدى الفكر الماركسي وأصحاب المذهب المادي في تفسير التاريخ لبيان أهمية العوامل الاقتصادية في التطور التاريخي ، هذا وان كان المذهب المذكور قد تعرض للعديد من سهام النقد لما فيه من غلو في القول ، بأن قوى الانتاج والعلاقات الانتاجية تشكل الاساس في كل نظام اجتماعي ، لدرجة تجعل من التطور الاقتصادي المركز لكل تطور سياسي واجتماعي وديني وفلسفي .

ويقر الباحثون الحديثون في التاريخ الاسلامي بأهمية العامل الاقتصادي في تحقيق الاستقرار الحضاري حين يصف البعض (٣) ما أسبغه النظام الاسلامي من اهتمام جديد بالارض والنشاط الزراعي الي جانب نشاط التجارة تحت تأثير النظرة الجديدة للدخل من الزراعة وملكية الارض كعوامل محترمة للمكانة الاجتماعية بعد حياة التنقل القبلية وحركة الغزوات والفتوح (٤) .

-
- (٢) ابن خلدون ، عبدالرحمن ، المقدمة ، طبعة وافي ج ١ / ١٩٦٨ م ص ٢٦٧ .
(٣) د . عبدالعزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٨٦ ،
(٤) الامر الذي بدأ معه اشراف العرب يحرصون علي تحويل الارض الخراجية الي أرض عشورية في الربع الاخير من القرن الاول الهجري .

والحق أن التاريخ الاقتصادي لحضارة الاسلام يزخر بالوقائع والاحداث التي ولدت آثارها العميقة في الحياة الاقتصادية للفرد والمجتمع – في اطار قيم العدالة الاجتماعية والسلوك الاخلاقي التي أرساها الاسلام في ظل الدولة الاسلامية وخاصة في عهد الخلفاء الراشدين .

وبرغم ذلك فان مؤرخي التاريخ الاسلامي والعربي قد استغرقهم الاهتمام بالاحداث السياسية والحربية ، فلم يتركوا باهتمام كاف بيان الوقائع الاقتصادية التي تصف الاحوال المعيشية وتطور مستوى النشاط الاقتصادي في ميادين الانتاج المختلفة في الدولة الاسلامية ، مما يتضمنه ذلك من وصف طابع النشاط الانتاجي والعلاقات الانتاجية بين الفئات المشاركة في الانتاج وآثار ذلك على الوجه الحضاري للاسلام ونظمه الاجتماعية والسياسية (٥) .

ولتطور الوقائع وظروف البيئة الاقتصادية أيضا تأثيرها علي علم الاقتصاد ذاته ، فالاقتصاد علم اجتماعي يسعى لدراسة المشكلات الاقتصادية وتوفير الحلول لها ، وهو يرتبط لذلك بتطورات البيئة الاقتصادية وما تشهده من تغيرات في حجم الموارد المتاحة ومستوى المعرفة الفنية السائد .. وها هي النظرية الاقتصادية في الجانب الاعظم منها تدور - وقد نشأت في ظل نظام السوق الرأسمالي في أوروبا - حول افتراضات النظام المذكور من سعي الوحدات الاقتصادية المنتجة والمستهلكة علي أساس الرشادة الاقتصادية **Economic Rationality** التي تكفل الربح للمنتج والمنفعة للمستهلك ، مما تأثر بالمذهب الفردي (٦) .

(٥) د. أمين عفيفي ، المرجع السابق ، ص ٧ .

(٦) راجع في ذلك : Bhatia, H., History of Econ. Thought, Vikas House, Ghaziabad, India, 1980, p.5.

ومن هنا كانت أهمية التعرف على تطورات وقائع الاقتصاد الاسلامي في ظل القيم الاسلامية مما يمكن أن يسهم في بناء للنظرية الاقتصادية يستهدى بمبادئ الاسلام ويستشهد بواقع تجربته في صدر الدولة الاسلامية مما تحقق به النمو الاقتصادي الكبير في ظل حضارة الاسلام .

٢ - جدوى التاريخ وأهمية عرضه المحايد :

كم من نظريات وسياسات عرضها أصحابها في اطار منطقي متسلسل الفروض والنتائج ولكنها لم تتخطي مجال الفكر الي واقع الحياة ومحك التجربة ، ومن النظريات والنظم مازل الي حقل التجربة فثبت فشله وتغلبت سلبياته علي ايجابياته ، وفي مثالية مجتمع أفلاطون وفي الاشتراكية الغابية والشيوعية وغيرها الامثلة علي أن الفكر شيء وجدواه التطبيقية في مجال الواقع والتجربة شيء آخر .

وربما يكون في ذلك مايرر عودة البعض - مثلما يفعل الكاتب في هذا المقال الي عمق التاريخ ليستظهر منه أمثلية نظام الاقتصاد الاسلامي في ضوء المفهوم العصري الحضارى لتقدم المجتمع البشرى ورفاهيته الحقيقية ، ولاشك أن عودة الاقتصاديين المعاصرين الي منابع الاسلام وتجربته الفريدة في أوج ازدهارها ، لا يعد اليوم تغن بأمجاد الماضي بقدر ماهو عرض وتمحيص لوقائع التاريخ كبرهان ناصع علي سبق وأمثلية المنظور الاسلامي للتقدم الانساني في مجال النشاط الاقتصادي للفرد أو المجتمع ، وجدوى الرجوع اليه في مواجهة حاضر المشكلات الاقتصادية .

والرجوع لتاريخ الاقتصاد الاسلامي - فيما يفعل الكاتب - ضرورة أدركها حتي بعض مفكرى الغرب المسيحي (٧) . في معرض المفاضلة والانتقاء مابين النظم الاقتصادية التي عرفها المجتمع البشرى ، ويتصل بهذه الضرورة أهمية تنقية

(٧) كان أول من اهتم بدراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للتاريخ الاسلامي من مؤرخي الغرب
C. Becker, I. Goldziher, Cl. Cahen

التاريخ الاسلامي من شوائب العرض المتحيز أو السرد غير الواعي بالقيم الاسلامية التي استظل بها وانصهر فيها الاقتصاد الاسلامي من واقع تجربته (٨) .

ويقال أن حقائق التاريخ المعروفة سواء وجدت في الوثائق أم لم توجد ، فانها لابد أن تخضع لصنع المؤرخ الذي يلون عرضه للوقائع ، انتماؤه السياسي أو المذهبي أو تفسيره الخاص (٩) .

وحيث بزغت تجربة الاقتصاد الاسلامي في أواخر القرن السابع الميلادي وخلال ما اصطلح علي تسميته بفترة القرون الوسطى ، فان ظهور ذلك النظام الاقتصادي كجزء من الحضارة الاسلامية ، كان في مرحلة سبقت بزمن عصر النهضة الاوربية والكشوف الجغرافية والتوسع الاقتصادي والاستعماري الاوربي والثورة الصناعية ، مما انكب عليه مؤرخو التطور الاقتصادي الغربيين فكان محور دراستهم واهتمامهم ، دون التفات أو توقف عند تجربة الاقتصاد الاسلامي كجزء من حضارة الاسلام ومن وقائع التطور الاقتصادي العالمي بوجه عام .

(٨) فالبرغم مما نهج اليه علم التاريخ حديثا من التركيز علي بعض الحقائق المؤكدة التي تظهرها الوثائق والنقوش ، فان المؤرخين لهم دورهم في اختبار نوع الحقائق التي يبرزونها من خلال تفسير المؤرخ ذاته لحقائق التاريخ (راجع في ذلك : ادوارد كار ، ماهو التاريخ ؟ ترجمة : ماهر كيالي ، وبيار عقل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ط ٢ ١٩٨٠ ، ص ١١ ، ١٧٤) .

(٩) ومن قبيل ذلك ما ساد عرض مؤرخي القرن التاسع عشر للتاريخ الاقتصادي من نظرة ليبرالية تتأثر المذهب الاقتصادي الحر ، كما أن المؤرخ قد ينقصه الفهم التصوري لادهان الناس والقيم السائدة في العصر الذي يؤرخ لـه ومثال ذلك وصف مؤرخي القرن التاسع عشر للعصور الوسطي من خلال شعور الازدراء للبربرية والمعتقدات الغيبية في تلك العصور .

كما أنه مما لا يمكن إنكاره أن نزعة التعصب ضد حضارة الاسلام ونظمه - التي صاحبت الحروب الصليبية خلال القرن الحادى عشر وما تلاه - كان لها أثرها في طمس واغفال خصائص التفوق الحضارى في نظام وتجربة الاقتصاد الاسلامي .

وسواء استمر تأثير هذه النزعة - وهي قائمة فعلا - أم لم يستمر ، فان عصرنا الحاضر في حاجة الي فهم تصورى كاف لجوهر النظام الاقتصادى الاسلامي من واقع تجربته ، بما سادته من قيم أخلاقية وايمانية يفترق استيعابها الاقتصاديون الذين يدينون بايديولوجيات الغرب الرأسمالي ، أو الشرق الاشتراكي .

ولعل أبرز الامثلة علي صبح العرض التاريخي للاحداث الاقتصادية بلون مذهبي منحي مدرسة المادية التاريخية التي تعتنق المذهب المادى المسبق في تفسير التاريخ .

ولدى متابعة أحداث ووقائع التاريخ الاقتصادى في الاسلام ، ينبغي أن ننظر للتراث نظرة علمية محايدة تنأى عن مزالق التفسير المتحيز لفكر مسبق ، بل يأتي التفسير تاليا لثبوت الوقائع التاريخية وحجيتها وامتشيا مع تلك الوقائع (١٠) .

ان الصراع الفكرى والجدلي الدائر بين ايديولوجيات النظم الاقتصادية السائدة ، يمكن أن يجد منتهاه اذا ماجرى استخلاص عبرة الماضي - من خلال تجربة الاقتصاد الاسلامي - في موضوعية تنشُد وجه الحقيقة ، للاستفادة من خبرة الماضي في التغلب علي صعوبات الحاضر ومشكلاته . وفي ذلك يتحقق مايقصده ادوارد كار في وصف مهمة المؤرخ من النظر الي الماضي وفهمه واستيعابه كمفتاح لفهم الحاضر (١١) .

(١٠) راجع في تفنيد ذلك : فتحي عثمان ، التاريخ الاسلامي والمذهب المادى في التفسير ، الدار الكويتية ، ط ١ ، ١٩٦٩م ، ص ٣٧ ، ٣٠٩ - ٣٢٢ .
يقدر المؤلف أن " التجرد الكامل في الدراسات الانسانية - وبخاصة التاريخ - عسير مريب " (ص ٤٧) .

المبحث الثاني

ظهور النهضة الاقتصادية للإسلام مقارنة بظهور النهضة الاقتصادية لأوروبا

"هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها" (هود ٦١)

نتناول في هذا المبحث :

- * أحوال الاقتصاد العربي والأوروبي عند ظهور الإسلام .
- * ظهور عوامل النهضة الاقتصادية في أوروبا مقارنة بنهضة الاقتصاد الإسلامي .

١ - أحوال الاقتصاد العربي والأوروبي عند ظهور الإسلام :

الاحوال الاقتصادية في شبه الجزيرة العربية (*)

كان سكان شبه الجزيرة العربية من القبائل الرحل - المنعزلة فكرياً عن الخارج - المتنقلة في نشاط الرعي والزراعة وراء مصادر المياه من مساقط الأمطار والينابيع ، وكان البناء الاجتماعي للقبيلة يقوم على العصبية الجماعية لعلاقة الدم والقرابة والنزعة الفردية ، فكانت القبيلة على هذا الأساس هي الوحدة المتماسكة لمجتمع البدو (١٢) .

(*) راجع في ذلك : شلبي ، د. أحمد ، التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية جزء ١ ، طبعة ١٩٧٤م ص ١٣٤ - ١٤٥ .

(١٢) ويرتبط التكوين الاجتماعي للقبائل بنظام العشيرة والأقوام ، ويحتل مركز شيخ القبيلة أهمية خاصة ، فهو يتصف بالشجاعة والكرم وله الاحترام وهو الذي يرعى شؤون القوم ويلجأ إليه الضعفاء وذوى الحاجة فهو ركن من أركان شركة الشيوع في أموال القبيلة .

وكان النشاط الاقتصادي يقوم علي مبدأ الملكية المشاع أو المشاركة الاقتصادية في الموارد المتاحة من المياه والارض والمراعي وينتفع كافة أفراد القبيلة من ثروتها كل بقدر حاجته ، ويعمل الجميع لتنمية الثروة (١٣) .

وتوصف الاحوال المعيشية لاهل شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة بقفر حياة البادية وضالة الرزق (١٤) مما اضطرهم لسد حاجاتهم بالكاد عن طريق الشيوخ وتقاسم المحصول أو الصيد .

وكانت أدوات الانتاج بدائية بسيطة كالفوس والسهم والشباك وكلاب الصيد كما كان نشاط الغزو والاغارة لجلب الثروة واقتسامها أحد أركان البناء الاقتصادي ويطلق البعض علي هذه المرحلة الشيوعية البدائية (١٥) .

وبالاضافة الي القبائل كانت توجد جماعات الصعاليك الذين خرجوا في تمرد أو طردوا من قبائلهم وتضم هذه الجماعات الشذاذ وأبناء الاماء والفقراء المتمردين وكانت علي استعداد مستمر للغزو وسلب الاموال واقتسامها (١٦) .

(١٣) حيث تقتسم القبائل صيد اللؤلؤ والاسماك ومناجم الملح والنخيل والمراعي ومزارع الشعير .

(١٤) Kirk, A Short History of the Middle East, p. 7.

(١٥) شلبي ، د. أحمد ، التطورات الاقتصادية في العالم عبر التاريخ ص ١٨

(١٦) وان اتصف الصعاليك بالتماسك والتعاون وحماية حق الضعيف وعدم التعرض لاموال الاغنياء الاسخياء أو الفقراء المحتاجين .

كما كانت التجارة نشاطا اقتصاديا رئيسيا في شبه الجزيرة ، وكانت للعرب أسواقهم الشهيرة (١٧) ، أما الصناعة ، فكان العرب أبعد ما يكونون عنها (١٨) ولذا كانوا يعتمدون علي غيرهم في القيام بالحرف الصناعية مثل الروم أو الفرس في صناعة البناء .

الاحوال الاقتصادية في أوروبا :

ظهر الاسلام خلال ما عرف في تاريخ أوروبا بفترة القرون الوسطي ، وكانت الشعوب الاوربية آنذاك بعيدة عن الحضارة الرفيعة ، حيث قامت تلك الشعوب علي أنقاض غزوات المتبربرين ، ووجدت أمامها حضارة الرومان قائمة « فاققتبت منها ، كما كان نفوذ الكنيسة المسيحية ، وسلطانها الروحي والمادى قد بدأ يمارس أثره علي الحياة في أوروبا .

ولكن هذا المزيج الذى قامت عليه حضارة أوروبا آنذاك وانبثق منه الاقتصاد الاوربي ، كان يعتره الاضطراب والتخريب بسبب غزوات البربر ، كما أن الاقتصاد الروماني ذاته كان بعيدا عن الاستقرار في غمار انهيار الامبراطورية الرومانية منذ القرن الخامس الميلادى .

(١٧) واعتادت قريش رحلتان تجاريتان : الي الشام صيفا والي اليمن شتاء .

(١٨) بل كان العرب يحرقون الصناعة ويعيبون المحترف بحرفة ، من ذلك أن كان المعديون يعيبون أصل اليمن بدباغة الجلود ، وكان يقال : هم بين دابغ جلد وناسج برد .

(انظر : الخضرى ، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية) ، جزء ١ ، المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة ١٩٦٩ م ، ص ١٦ ، ١٧) .

وكان أهم ما يلاحظ علي الكيان الاقتصادي لاوربا خلال الفترة المذكورة
بوجه عام (١٩) :

- أن النشاط الاقتصادي الغالب كان هو الزراعة التي تشكل المصدر الرئيسي للثروة .
- وكان نظام الضيعة المغلقة يمثل تكوين اجتماعي معين يجرى من خلاله النشاط الاقتصادي ، فيحكم علاقات وطرائق الانتاج ، فكان السيد أو النبيل هو الذي يملك الارض وما عليها من أدوات الانتاج ومن عليها من الفلاحين من أقنان وعبيد ، وكان الفلاحون من الاقنان الذين يعيشون حالة بين الرق والحرية ومن العبيد المملوكين للسيد ملكية تامة وكانت هذه العلاقة الواقعية بين السيد والاقنان تمثل تطورا للتنظيم الاجتماعي القائم علي الرق والعبودية نحو وضع أكثر تحررا للتابع وان ظل القن خاضعا لبعض مظاهر العبودية ، والاقنان يجبرون علي التزامات معينة تجاه الشريف وخاصة زراعة أرضه ، ثم تطور البعض من هذه الالتزامات الي التزامات مالية كدفع مقابل لاعفاء القن من السخرة أو مقابل للتمتع بوراثنة الارض .
- ومن حيث طريقة الانتاج ومستوى فنونه ، كان الانتاج الزراعي يجرى في شكل وحدات صغيرة - حيث كان الجانب الاكبر من الارض يقسم الي قطاعات صغيرة تتجزأ بدورها الي شرائح - ويقوم الفلاح بزراعة عدد من الاشربة المتفرقة مكانيا علي وجه كان يسبب ضياعا لجانب من الموارد من جهد وأرض .
- وكانت أدوات الانتاج بدائية مملوكة للشريف ، أما طرائق الانتاج فكانت متخلفة .

(١٩) حسين ، د. د. وجدى محمود ، مذكرات في التطور الاقتصادي ، لطلاب جامعة المنصورة عام ١٩٧٩ م ، ص ٣٧-٤٢ .
عفيفي ، د. أمين ، المرجع السابق ، ص ٢٥-١٦ .

- أما عن الحياة الاقتصادية في مدن أوروبا خلال القرون الوسطي ، فكانت تتصف أيضا بالجمود والتأخر ، وكان النشاط فيها مابين صناعة وتجارة ، وتميزت الأنشطة المذكورة بالتكتل الذي يقيد من حرية الافراد ، فنشأت طوائف الحرف - في الصناعة التي يلتزم أفرادها بتقاليد معينة ويتحدون لتنظيم مصالحهم والمحافظة علي المستوى الفني للحرفة .

- كذلك ضمت التجار اتحادات عامة تعمل علي توسيع مشروعاتهم وتمكن كبار التجار من خلال اتحاداتهم من السيطرة علي قطاع الصناعة الذي كانوا يمولونه بروءوس أموالهم الضخمة ، كما أدى الي ارتباك أرباب الصناعة بديونهم . ومكن للتجار من التحكم في حياة المدينة ، كما ساءت أحوال الاجراء الكادحين من طبقة العمال في المصانع والنقل لانخفاض أجورهم وتدهور مستوى معيشتهم .

على أن نشاط التجارة هو الآخر قد اعتراه الركود ابان فترات الغزو علي أوروبا من الشرق والشمال ، خلال قرون عديدة ، استمرت حتي القرن العاشر ، فلم يبدأ توسع التجارة من جديد سوى في القرن الحادى عشر (٢٠)

وكان في تلك الاحوال التي صاحبها سخط الطبقات العاملة ، ما زعزع النظام القطاعي ومهد لظهور المعالم الاقتصادية الجديدة للحياة الاوربية علي أيدي رجال الصناعة والتجارة والمال في القرن الخامس عشر .

(٢٠) وبعد أن انتعشت قطاعات الانتاج في أوروبا زهاء قرون ثلاثة اعتبارا من القرن الحادى عشر ، عادت للانكماش منذ أواخر القرن الرابع عشر حيث تفشت المجاعات وزادت وطأة الضرائب وارتفاع الاسعار وانتشرت الوبئة فتدهورت بذلك أحوال أوروبا الاقتصادية في تلك الفترة (راجع : د. أمين عفيفي ، المرجع السابق ، ص ٢١- ٢٢) .

٢ - نهضة الاسلام الاقتصادية مقارنة بالنهضة الاقتصادية في أوروبا :

حيث تنصرف معظم مراجع التاريخ الاقتصادي أساسا الي وصف وبيان وقائع التطور الاقتصادي لاوروبا ، وحيث ترتبط وقائع التاريخ الاقتصادي لبلدان العالم علي وجه أو آخر بالتطور الاقتصادي لاوروبا ، حتي أن الكثير من مسائلنا ومشاكلنا الاقتصادية المعاصرة لايمكن فهمها علي وجهها الصحيح دون ربطها بأحداث التاريخ الاوربي .

ونظرا لان التاريخ الاقتصادي لاوروبا يعرض لنا جهود الشعوب الاوربية في سبيل بناء حضارتها الراهنة ، مما اعترضها من مشكلات اقتصادية يمكن الافادة منها كتجارب للتطور الاقتصادي .

وبالنظر لان حضارة الاسلام في القرن السابع الميلادي وما بعده قد ازدهرت في وقت لم تكن فيه حضارة أوروبا المعاصرة قد ظهرت في حيز الوجود ، فان مقارنة الآثار الحضارية لوقائع الاقتصاد الاسلامي وانجازاته المادية والمعنوية ، بما جرى من ميلاد وتطور النهضة الاوربية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، لما يميز السبق والتفوق الحضارى لواقع الاقتصاد الاسلامي منذ آونة التخلف التي عاشتها أوروبا في القرون الوسطي علي ما أوضحنا .

وعندما نعرض في مرحلة لاحقة من البحث - بمشيئة الله للتحويلات الكبيرة التي أضفتها الحضارة الاسلامية علي النشاط الاقتصادي بكل قطاعاته - وما انطوت عليه القيم الاخلاقية والثقافية للاسلام من أثر علي علاقات الانتاج - سنرى أن حضارة ربيعة قد انطلقت في العالم الاسلامي خلال فترة القرون الوسطي ، أسفرت عن نمو اقتصادي وتقدم عمراني ، بينما كانت البيوت في باريس ولندن لاتزال تبني بالحجر المنحوت بلا أمن ولا ادارة ولا حكام يكفلون العدل ، ولم تعرف الشوارع المجارى ولا المصاييح ، وانتشرت الغابات والمستنقعات على وجه كثرت معه الاوبئة والامراض (٢١) . أما الحياة الفكرية للمواطن الاوربي في ذلك العصر فقد سادتها

• الجهالة والاهام (٢٢) •

وقد ذكر المؤرخون أن بداية اتصال الشرق بالغرب في القرن الحادى عشر الميلادى بدخول النصارى حمي المسلمين المتمدينين من طريقي الحروب الصليبية والتجارة ، فهال النصارى الاوربيين ما شاهدوه في المشرق الاسلامي من معالم الحضارة ومظاهر الرقي •

أما أوروبا الشرقية الشمالية فكانت تعمها الهمجية وكانت روسيا مسرحا لقبائل من الصقالية يتسلط عليها التتار ويسومونها العذاب (٢٣) •

أسباب النهضة الاقتصادية في أوروبا :

كانت أهم معالم التطور الاقتصادى والسياسي والفكرى في أوروبا منذ أواخر القرن الخامس عشر تتمثل في مرحلة التجهيز الاوربي خلال الفترة ١٤٥٠ - ١٧٥٠ م التي ظهرت فيها أدوات التخلص من بقايا النظام الاقطاعي ، ومن ذلك كفاح الاوربيين في الكشف عن أسرار الطبيعة والبحث عن وسائل الافادة منها ، فتوصلوا الي مخترعات تحقق رفاهية الفرد وقوة الدولة ، كما تمكنوا من تجميع عناصر القوة الروحية والادبية باحترام الحياة البشرية وتعزيز سلطان الدولة وفرض سيطرتها علي الموارد الاقتصادية من أجل تنميتها •

-
- (٢٢) ويصف سنيوبوس (تاريخ الحضارة) شارلمان حاكم فرنسا وألمانيا وايطاليا وأعظم ملوك أوروبا في تلك الازمنة بأنه كان أقرب الى الامية منه الي نور العلم ، ولم تكن في فرنسا أية كتابات أدبية ، وكان الاشراف يجهلون الكتابة ، غلاظ ، جفاة الاخلاق ، وكان تعاملهم مع أعدائهم بقسوة ووحشية •
- (٢٣) وبقيت روسيا علي تلك الاحوال الي أن خلصها من قيود الجهل بطرس الاكبر •

وكان الصراع في تلك المرحلة ضد الاقطاع ونفوذ الكنيسة وسيطرة حكومة المدينة ، وهي القوى التي كانت تسيطر علي الموارد وتستغل نشاط الافراد وتحدد آفاقهم الفكرية والروحية ، فقامت الجامعات وظهر المصلحون الدينيون ، كما ظهر رأس المال مقتربا باحترام العمل ونمت فروع جديدة للصناعات .

ولكن عندما استكملت الدولة سلطتها تجاه العناصر السالفة الذكر ، بدأت في بسط نفوذها علي الافراد ، فقيدت من حريتهم في ممارسة النشاط الاقتصادي والمشاركة في الحكم ، ولم يتمكن المواطن الاوربي من نيل حريته الفردية الا في القرن التاسع عشر وما بعده ، حينما شاعت الحرية الاقتصادية والديمقراطية السياسية

وكان من عوامل ازدهار النشاط الاقتصادي في أوروبا اعتبارا من ذلك الوقت ظروف وتيارات جديدة ، كان قد طرأ بعضها منذ أواخر القرون الوسطى ، أهمها (٢٤) :

- حركات النهضة والاصلاح الديني « وثورة كلفن علي سلطان الكنيسة حيث نادى باحترام العمل وجمع الثروة .
- نهضة الفن والادب والعلم القائم علي الاستقراء والاستنباط .
- ظهور صناعات جديدة وبناء أساطيل قوية .
- الكشف الجغرافية والتوسع الاستعماري « وكانت الروح الدينية (الصليبية) هي الغالبة علي حركات التوسع الاوربي ، وفتحت الحروب الصليبية أبواب التجارة مع الشرق ، كما بعثت الحياة في حوض البحر الابيض المتوسط ، وانتشر التوسع الاوربي فيما وراء البحار وتطور الي صراع بين الدول الاستعمارية علي مناطق النفوذ .

- قيام الوحدات القومية ، وزيادة السكان .
- اتساع الانتاج وتنوعه ، تقدم الزراعة مع نمو الرأسمالية (٢٥) .

ومهد كل ذلك للمرحلة الثانية من تطور أوروبا الاقتصادية وهي مرحلة التحرر والثورة اعتبارا من ١٧٥٠ م حتي الان ، وهي المرحلة التي ملكت فيها زمام التفوق في العالم ، حيث امتد منها ذلك التفوق الي الولايات المتحدة الامريكية .

فاذا قارنا عوامل النهضة الاقتصادية لأوروبا - مما تلاحق وتفاعل اعتبارا من القرن الخامس عشر الميلادي - بما انطلقت به حضارة الاسلام ونظامها الاقتصادي قبل ذلك بسبعة قرون علي الاقل - لالفينا السبق الحضاري بعوامله المتضافرة للاسلام ومبادئه وظروف انتشاره وتوسعه الاقتصادي ، ليس فقط سبقا زمنيا ، بل سمو حضاري يرفع من قدر العمل الشريف والكسب الحلال من الانتاج . ويسوى بين الغني والفقير والحاكم والمحكوم ويصحح مفاهيم الانسان نحو الكون والمجتمع بما لا يقارن مع حركات الإصلاح الديني ونورة كلفن في أوروبا .

(٢٥) لم يبدأ تقدم الزراعة الا من خلال فترة تحول بدأت في القرن الثالث عشر الميلادي واستمرت ستة قرون ، وذلك بتأثير ظهور النظام الرأسمالي مع بداية استخدام النقود وقيام التبادل والتجارة ونمو الصناعة ، ومع انتشار استخدام المزارعين للنقود في أداء التزاماتهم مما مكن عبيد النظام الاقطاعي من التحول الي مستأجرين للأرض مقابل ايجارات نقدية (راجع في ذلك : عجمية ، د . محمد عبدالعزيز ، التطور الاقتصادي في أوروبا والوطن العربي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٠ م ، ص ١٨-٢٢) .

ثم نجد في انتشار الاسلام وتوسع فتوحاته شرقا وغربا لنشر الدين الجديد وخاتم الرسالات ، واعلاء كلمة الحق ، لالتعصب أو أطماع استعمارية أو نهب ثروات أو استرقاق شعوب .

ثم نجد في قوة الدولة الاسلامية ونفاذ سلطانها عبر أرجائها ما يجاوز نفوذ الوحدات القومية التي ظهرت في أوروبا .

ثم نجد ذلك الانتعاش الاقتصادي الذي ساد قطاعات الانتاج المختلفة فسي ظل الدولة الإسلامية من تجارة منتشرة شرقا وغربا وزراعة متقدمة بأساليبها ونظم ربيها وحوافز زراعتها ، وصناعات ازدهرت مع التقدم الفني والتخصص واتساع الاسواق بنمو سكان الدولة علي ما سيرد بيانه في بحثنا .

المبحث الثالث

الاقتصاد الاسلامي ثورة اجتماعية اقتصادية مبكرة

"كي لا تكون دولة بين الاغنياء منكم ٠٠٠" (الحشر ٧)

نتناول في هذا المبحث :

- القيم الاسلامية والمعالم الحضارية للاقتصاد الاسلامي .
- أدوات التحول الاجتماعي والثقافي :
- العدالة الاجتماعية واطلاق الفكر المبدع .
- الاقتصاد الاسلامي والتحول في علاقات الانتاج والقوى العاملة .

١ - القيم الاسلامية والمعالم الحضارية للاقتصاد الاسلامي :

كان لظهور الاسلام في أواخر القرن السادس الميلادي وما بعده آثاره العميقة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية سواء في شبه الجزيرة العربية أو سائر البلاد التي انتشرت فيها دعوة الاسلام ونظمه . وحملت حضارة الاسلام بذلك رسالة للمجتمع الانساني بأسره تتغلغل في كل جوانب التقدم الحضاري للبشرية .

وقبل أن نعرض في ايجاز لابرز الملامح الحضارية للاقتصاد الاسلامي نشير الي الجوانب الرئيسية التي يتضمنها أي تقدم حضاري يحقق سعادة ورخاء وأمن البشر حيث تتمثل تلك الجوانب فيما يلي (٢٦) :

(٢٦) عبدالرحمن حسن الميداني ، أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها ، طبعة ٢ ، دارالعلم ، بيروت ١٩٨٠ م ص ١٧ ، ١٨ .

✱ بلوغ ما يحقق السعادة الخالدة للفرد والمجتمع ، وذلك بادراك الانسان لذاته ولحقائق الكون ومصيره في الالونة الاخيرة حيث يتعلق الامر ههنا بالمعتقدات والواجبات الدينية ، وقد تكفل الاسلام بهذا الجانب من خلال ما نزل به الوحي علي رسول الاسلام محمد عليه السلام .

✱ تقدم المجتمع الانساني عن طريق شيوع الرخاء والامن والعدالة والحرية ، وما يكفله التعاون وشيوع الخير والنظام والتقاليد الاخلاقية ، وسبيل ذلك التلقي التعليمي اما عن طريق الوحي الذي وردت به الشرائع السماوية او عن طريق الاستنباط بالبحث العلمي او الاختبار والتجربة .

✱ اشباع الحاجات المادية والنفسية للفرد ، بما يحفظ كيان جسم الانسان ونموه وامتاعه حسيا ونفسيا ، ويستخدم لذلك العقل والبحث العلمي والممارسة التطبيقية في نشاط الانسان الاقتصادي .

فاذا تأملنا منهاج الحضارة الاسلامية فيما أتت به لتوفيه تلك الجوانب الرئيسية للتقدم الحضارى ، نجد حضارة الاسلام تبدأ بالقيمة فيتكفل الوحي المنزل بالجانب الاول لبلوغ السعادة الخالدة للفرد والمجتمع ، ثم تتدرج الي الجانب الاوسط فيما يخدم تقدم المجتمع الانساني من أسباب العدل والمساواة والحرية ... الخ . أما الجانب الثالث والمتعلق باشباع الحاجات المادية والنفسية للفرد ، فقد تركه الاسلام للاجتهاد الانساني الذى يقوم علي التطوير والابتكار والتنافس بالاستجابة لدوافع وغرائز الانسان ولكن بشرط أن يكون ذلك في دائرة الخير واطار الالتزام بالقيم الاخلاقية والايمانية للاسلام واذ تتضمن حضارة الاسلام هذه الجوانب جميعا فهى تفضل في شموليتها سائر الحضارات الاخرى التي قد تراعي بعض الجوانب مع اهمال الجوانب الاخرى .

وفي ذلك يقول المفكر الاسلامي محمد ضاوى (٢٧) : " الحضارة الاسلامية هي تفاعل الانشطة الانسانية للجماعة الاسلامية الموحدة لخلافة الله في الارض ، عبر الزمن ، وضمن المفاهيم الاسلامية عن الحياة والاكوان " .

وتتمثل الملامح الحضارية التي أضفاها الاسلام على الحياة الاقتصادية ، فكانت بمثابة ثورة فجرت العمل الاقتصادى المنتج في اطار نظام اقتصادى ينطلق من القيم الاسلامية ، فيما يلي :

أولا : ماتضمنه الاسلام من حضارة ذات معطيات ثابتة حول محور واضح يتحدد وفقا له اطارالغايات والوسائل في حياة الانسان ، حيث الغاية هي تحقيق الانسان لخلافة الله في الارض والوسائل هي مقدرات الله التي سخرها له الله وبذلك يكون نشاط اشباع الحاجات الانسانية من مأكّل وملبس وجنس . . . الخ . ماهي الا وسائل ولايجوز أن تنقلب الي غايات (٢٨) . وبرغم هذه المعطيات المحورية الثابتة فقد ترك الاسلام حرية الحركة والمرونة اللازمة لمواجهة مقتضيات التطور واختلاف ظروف الزمان والمكان فيما يتعلق باستخدامه للوسائل ، ويتفرع عن ذلك الاثر والنتيجة التالية .

(٢٧) الذى يعرف الحضارة بأنها : " تفاعل الانشطة الانسانية لجماعة ما ، في مكان معين ، وفي زمن محدد أو أزمان متعاقبة ضمن مفاهيم خاصة عن الحياة (ضاوى ، محمد على ، الحضارة الاسلامية بين التحدى والتعطيل ، الندوة الرابعة للشباب الاسلامي ، الاسلام والحضارة ، الرياض ، ١٩٧٩ م ، مجلد ١ ، ص ٥٢٩ ، ٥٣٠) .

(٢٨) ضاوى ، المرجع أعلاه ص ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

ثانياً : فصل قيمة الاقتصاد عن قيمة الانسان ووضع الاقتصاد في خدمة الانسان (٢٩)
فالاسلام قد عامل الاقتصاد علي أنه عامل رئيسي في حياة الانسان ، ولكنه
لايفضل الانسانية في قيمها العليا فلا يظفي علي الروابط بين الانسان والانسان
فبرغم الحقيقة التي يطرحها القرآن الكريم من قيمة المال لدى الانسان :
" المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (الكهف٤٦) فالاية تردف ذلك ببيان
أولوية القيم والعمل الصالح : " والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا
وخير أملا " والانسان تقدر قيمته بمدى درجته في المستوى الانساني وليس
بمدى ملكيته في الاقتصاد (٣٠) ، فالجزء الاولي في اليوم الآخر هو للمؤمن
الملتزم بالقيم الانسانية .

ولايرتبط مصير وتطور حياة الانسان - وفقا للنظام الاسلامي - بتطور الظروف
الاقتصادية وقوى الانتاج وعلاقاته - كما يشير المذهب المادى الي حتمية التطور
التاريخي - بل ان الاقتصاد والمال مسخرين من فضل الله لخدمة الانسان :
" وما ذراً لكم في الارض مختلفا ألوانه " " وسخر لكم مافي السماوات ومافى الارض
جميعا ... " (الجاثية ١٣) .

ثالثاً : تعزيز قيمة الفرد وتكريمه مع مسأله لصالح الدين والمجتمع ، وهنا نجد
الفارق الحضارى الشاسع بين الفردية في مذاهب الفكر الاوربي ، والفردية
التي يكرم بها الاسلام الفرد فيما يكلفه له من عدل ومساواة وحرية وشورى ،
تلك المبادئ التي تركت أعمق الاثر علي الحياة الاقتصادية للفرد المسلم :

(٢٩) البهي ، د. محمد ، الاسلام والاقتصاد ، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨١ص١٣، ٢٦
(٣٠) الثروة والملكية قد تكون لكافر لايلتزم القيم الاخلاقية للاسلام من عدل
واحسان ورحمة وتعاون ، وعندئذ لايتقدم بثرائه وماله علي المؤمن الملتزم
بالقيم : "انظر كيف فضلنا بعضهم علي بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر
تفضيلاً " (الاسراء ١٨-٢١) .

فمبدأ العدل في حضارة الاسلام لا يقتصر علي كونه شعارا فحسب كالذى رفعته الكثير من النظم والحضارات ، بينما لم تخضع له الا الطبقات المغلوبة ، بل وجد العدل طريقه فعلا في ظل الدولة الاسلامية ليسود بين الشريف والضعيف وبين الحاكم والمحكوم ، وكان له بذلك أثره علي العاملين والمنتجين من احساسهم الامن والعدل كحافز علي التفاني في نشاطهم الانتاجي .

كذلك كفل الاسلام المساواة بين الافراد في الحقوق والواجبات والكرامة وكافة الفرص الاجتماعية (٣١) بغض النظر عن اختلاف أجناسهم ، حيث يقول الرسول (ص) : " الناس سواسية كأسنان المشط ليس لعربي علي عجمي ولا لابيض علي أسود فضل الا بالتقوى " .

وبفضل ذلك شاركت كل الاجناس والالوان - في ظل الدولة الاسلامية - في العمل والانتاج وظهر علماء من مختلف الجنسيات يشاركون في صنع الحضارة الاسلامية وبذلك كان الاسلام " بمثابة الخطوة العملية العظمي نحو المساواة الصحيحة بين البشر حيث أصبح المسلمون الذين استمسكوا بعروة الدين - ونسوا عصبياتهم - سواء وصار أكرمهم عند الله أتقاهم " (٣٢) .

كذلك فرعاية الاسلام لحرية الانسان في ذاته وفي عقيدته وبالتالي في نشاطه الاقتصادي - حيث لاعبودية الا لله عز وجل - كفل للعمل المنتج الخلاق الحافز القوى ، ونظم الاسلام حدود الحرية في الفاصل بين الخير والشر وبين الحلال والحرام أي بين النافع والضار .

(٣١) كما سوى الاسلام بين المرأة والرجل بعد أن كانت البنت تتعرض للوأد عند ميلادها كما كانت بعض النظم تخضع المرأة للتوريث كالمحتاج ، فكفل لها الاسلام حرية الاختيار والتعلم والمشاركة في العمل والتصرف في مالها في حين لاتزال بعض نظم الغرب المعاصرة تحرمها من ذلك .

(٣٢) فروخ ، عمر ، تاريخ الفكر العربي الي أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٧٢ م ، ص ١٧٥ .

أما الشورى في الاسلام ، فقد منعت الاستبداد وحكم الفرد ودفعت بحوافز الافراد للاجادة والمشاركة المخلصة والفعالة في ادارة شئون الحكم والاقتصاد وتحقيق مصلحة المجتمع : " وأمرهم شورى بينهم " (حديث شريف) .

ولقد استقطبت حضارة الاسلام نوازع الفردية النابعة من الطبيعة البشرية ولكن في غير اغفال لمسؤولية الفرد الاجتماعية ومراعاة الصالح العام وحق الجماعة (٣٣) وفي هذا تتميز حضارة الاسلام عن كل مانادت به المذاهب الفردية التي تغنت بحرية الفرد كما سترى بعد قليل .

وأول ما يتسق فيه حضارة الاسلام مع فطرة الانسان ، اقرار الشريعة الاسلامية لمبدأ الملكية الفردية وحق الفرد في توريث ذويه والحرص علي الاستمتاع بنعم الله في غير معصية أو اسراف : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " (الكهف ٤٦) ، و " كلوا واشربوا ولا تسرفوا " (الاعراف ٣١) .

علي أن حضارة الاسلام مع اقرارها بنزعات النفس البشرية وحاجات الفرد وطبيعته الفطرية ، تتعامل مع الفرد من واقع قدراته كمخلوق عاقل ومكلف بموجب ادراكه للاشياء من أول يوم خلق ، وتوضح له طريق الخير مميزا عن طريق الشر : " انا عرضنا الامانة علي السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان " (الاحزاب ٧٢) .

(٣٣) راجع لكاتب هذا المقال : " السبق الحضارى للفكر الاقتصادى الاسلامي " ، بحث مقدم الي المؤتمر العلمي السنوى الثالث : المنهج الاقتصادى في الاسلام بين الفكر والتطبيق ، جامعة المنصورة ونقابة التجاريين ، القاهرة ، ١٢/٩ ابريل ١٩٨٣ م ، ص ٦٠ ، ٥ .

ومن واقع الارادة العاقلة في الانسان ، تضمنت حضارة الاسلام التكليف المسؤول في السلوك الاقتصادي وما سواه من أنشطة الانسان : " ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا " (الاسراء ٣٧) وتتضمن واقعية الاسلام في التعامل مع طبيعته الفرد توجيهها للجانب الاخلاقي في تقويم سلوك الفرد وكفالة شرف المقصد والغاية من نشاطه الاقتصادي ، وهكذا كفلت حضارة الاسلام تكريس دور الانسان المبدع في الحياة الاقتصادية ، وذلك من خلال استخلافه في الارض لاعمارها وشحذ روحه المعنوية النابعة من الايمان لمواجهة مصاعب الحياة ومسؤولياتها : " ولاتمشي في الارض مرحا " (الاسراء ٣٧) .

وقد كرس الاسلام الطاقة البشرية للعمل المنتج النافع ، حينما قرر المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والثواب : " اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكرر أو أنثي بعضكم من بعض " (آل عمران ١٩٥) وجعل الاسلام سبيل حصول الفرد علي المال ، هو جهده من العمل الشريف المشروع : " فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه . " (الملك ١٥) .

كما جعل حدود الاستهلاك المباح للفرد ، أن يكون المال أو الشيء من مصدر حلال : " كلوا مما في الارض حلالا ٠٠٠ " (البقرة ١٦٨) .

فاذا انتقلنا لمذهب الفردية الذي ساد مجتمعات الغرب ، نجد أن تمجيد الفرد ، قد ارتبط في أوروبا بظروف معينة ، منها نمو الرأسمالية والبروتستانتية مع بدايات الثورة الصناعية ومع انتشار مذاهب عدم تدخل الدولة ، ولما كانت وحدات الانتاج والتوزيع في المراحل الاولى للرأسمالية في أيدي الافراد وحدهم ، فان ايديولوجية النظام الاجتماعي الجديد أكدت بقوة علي دور المبادرة الفردية في النظام الاجتماعي ، بيد أن العملية بكاملها - كما هو واضح - عملية اجتماعية تمثل مرحلة معينة في التطور التاريخي ، فلم تمثل الفردية في أوروبا ثورة ضد مجتمع أو

تحرر أفراد من قيود اجتماعية كما فعل الاسلام (٣٤) .

رابعاً : تحريم الاسلام لادوات طغيان الانسان وظلمه لغيره (٣٥) . ومن ذلك تحريم الربا : " وأحل الله البيع وحرم الربا ٠٠٠ " (البقرة ٢٧٥) ، وتحريم أكل أموال الناس بالباطل عن طريق الاحتكار والغصب والسرقة : " يا أيها الذين آمنوا ، لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ٠٠٠ " (النساء ٢٩) وتحريم رشوة الحاكم لاستغلال الغير بدون وجه حق : " ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام ، لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم ، وأنتم تعلمون " (البقرة ١٨٨) ، وتحريم استغلال الضعيف : " وأتوا اليتامي أموالهم ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم " (النساء ٢) ، وتحريم تطويق الكيل والميزان في التجارة : " ويل للمطففين ٠٠٠ " (المطففين ١) .

* * *

هكذا ضمت حضارة الاسلام من القيم الموجهة للنشاط الاقتصادي ماضفي علي الاقتصاد الاسلامي سمات وملامح الثورة علي الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية السابقة علي ظهور الاسلام - سواء منها ماكان سائدا في الجزيرة العربية أو سائر بلاد العالم

(٣٤) بل ان الدلائل تشير الي أن المذهب الفردي الذي ساد العالم الغربي في المرحلة التاريخية المشار إليها قد بلغ نهايته مع ظهور الاحلال التدريجي للاشكال الجماعية المتحكمة في الانتاج والتنظيم الاقتصادي محل اشكال التحكم الفردي (راجع : ادوارد كار ، ماهو التاريخ ؟ مرجع سابق ، ص ٣٦، ٣٥)

(٣٥) البهي د . محمد " الاسلام والاقتصاد " المرجع السابق ص ١٨ - ٢٥ .

الآخري ، مما سنعرض له في المبحث التالي بمشيئة الله ، لنؤكد أن ماسوى الاسلام من حضارات أخرى لم تكن علي ذلك المستوى من الشمولية للجوانب الرئيسية اللازمة للتقدم الحضارى ، حيث انكبت الحضارات الآخري الحديثة التي عرفها المجتمع البشرى علي الجانب المادى في مجال ابتكار الوسائل المادية التي تخدم الجسد الفانى وتحقق لذاته ومتعه وراحته ، وما يقرب المسافات ويختصر الزمن ، في حين غفلت الحضارات المشار اليها عن الجوانب الفكرية والعقائدية والاخلاقية مما ينبير طريق الانسان في تعرفه علي ذاته وموقعه من الكون والحياة والخالق وعلي طريقه للعلاقات الاجتماعية الخيرة مع غيره من البشر (٣٦) .

(٣٦) راجع : الميداني ، عبدالرحمن " أسس الحضارة الاسلامية " المرجع

السابق ، ص ١٨ .

٢ - أدوات التحول الاجتماعي والثقافي : العدالة الاجتماعية واطلاق الفكر المبدع :

ان نهج الاسلام في الاقتصاد جزء من حضارته ، وحضارة الاسلام فكر شامل متكامل بدأ ببيان خطوط واضحة لموقع الفرد من خالقه والكون الذي يعيش فيه وحقوقه وواجباته في دائرة الاسرة والمجتمع وانتقل الي توضيح أسس الحكم العادل الذي يقوم علي الشورى ويرعي مصالح المسلمين ، كما اشتمل ذلك علي ابراز دور العلم في حياة الفرد والامة ، وانعكس كل ذلك علي نظم ومؤسسات الدولة الاسلامية التي تعتبر تطبيقا لنهج حضارة الاسلام في الاقتصاد ، كبيت المال والداووين التي أنشئت لادارة أموال المسلمين وتنظيم مصالحهم (٣٧) .

ويهمنا من بيان هذا النهج الشامل ووسائل تنظيمه في الاسلام ، ما عكسه من آثار دافعة حافزة لنشاط اقتصادي يتناسق مع قيم الاسلام ومبادئه .

والنظام الاجتماعي في الاسلام جزء من الدين ، وقد اشتمل الاسلام علي تنظيم صلات البشر فيما بينهم وبدأ بالحفاظ علي كرامة الانسان وكفالة حقوقه في الحرية والمساواة (٣٨) ، وجعل الزكاة حقا للمحتاجين في أموال الاغنياء .

وجعل الاسلام لكل فرد شخصيته المتميزة في التفكير وتحمل المسؤولية بعد أن كانت آراء الفرد تذوب في فكر القبيلة واتجاهاتها : " لتجزى كل نفس بما كسبت ... " (غافر ١٧) .

(٣٧) راجع : شلي ، د.أحمد ، الفكر الاسلامي ، منابعه وآثاره ، مكتبة النهضة العربية ، ١٩٧٨ م ، ص ٧١ .

(٣٨) كما ضيق الاسلام من حالات الرق التي كانت شائعة فقصرها علي أضيق الحدود تمهيدا لتصفيتها ، كذلك قضي علي النظام الاقطاعي الذي كان سائدا في اليمن بما كان يتضمنه من ظلم وعبودية لرقيق الارض . (شلي ، د.أحمد ، النظر الاقتصادية في العالم عبر العصور ، أثر الفكر الاسلامي فيها ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٦ م ، ص ١١٢-١١٤) .

كما وسع الاسلام من رابطة ولاء الانسان لمجتمعه فلم تعد تقتصر علي صلة الدم فحسب بل قويت رابطة الجوار ورابطة العقيدة والدين فضلا عن رابطة الاخاء الانساني عامة (٣٩) ، ولذلك أثره بطبيعة الحال علي نشاط الانسان الاقتصادي في نطاق حقوق الله وحقوق غيره من أفراد المجتمع .

* * *

وفي مقدمة السمات الحضارية لشرائع الاسلام الاجتماعية التي أضفت أثرها الطيب علي النشاط الاقتصادي . نظام الزكاة كفريضة علي أموال الاغنياء لصالح الفقراء ، ولا محل لتعداد منافع الزكاة الاقتصادية من حيث أثرها علي تقريب الفوارق بين الدخل والثروات وأثرها الانعاشي علي الاقتصاد من زيادة الانفاق - انفاق من يتلقونها - علي الاستهلاك والاستثمار ، ثم أثرها الاجتماعي في مكافحة الفقر والحاجة والبطالة ... الخ .

كذلك كان من أحكام الشريعة الاسلامية التي أشاعت الاستقرار الاقتصادي واستقامة المعاملات قواعد القصاص والحدود التي كفلت الامن والعدالة ، وقواعد تنظيم المعاملات فيما أمر به كتاب الله من الوفاء بالعقود والالتزامات وما نهى عنه من أكل أموال الناس بالباطل وعن الربا وما نظمت به أشكال اثبات الديون والحقوق من اثبات الدين بالكتابة وشهادة الشهود (٤٠) .

(٣٩) وسع حكام المسلمين في تلك الروابط بكثير من المرونة ، ومن أمثلة ذلك ما قرره عمر من فرض صدقة من بيت المال لفقير من أهل الكتاب ، حيث قال عمر رضي الله عنه : " اتما الصدقات للفقراء والمساكين ، وهذا من مساكين أهل الكتاب " .

وكان لقيام الدولة الإسلامية الموحدة بعد ظهور الاسلام أثره في نماء التجارة واستقرار الاحوال الاقتصادية ، فقد أخضع الاسلام قبائل العرب المتنافرة لسلطان واحد بعد أن كانت القبيلة والفردية مصدر فخر ، فتألفت من القبائل المتفرقة أمة واحدة استمرت وازدهرت بعد وفاة الرسول (ص) .

ووصف البعض حكم الخلفاء الراشدين بالحكومة الشعبية التي تستند الي شريعة الهية يديرها ولي أمر منتخب مقيد في سلطته ، حيث يرتبط النظام الاجتماعي بالقرآن ويتكفل ولي الامر فقط بوضع نظم الامن وترتيب وظائف الدولة وشئون الحرب وما شابهها (٤١) .

وتميز حكم الخلفاء الراشدين بالمثالية والعدالة وزهد الحكام في الثراء وحرصهم علي مساواة المحكومين في تطبيق الشريعة لافرق بين غني وفقير ، كما تميز العهد المذكور بالتزام الحاكم ومسؤوليته عن أفعاله (٤٢) .

ويقرر المؤرخون أن النظم السياسية والاقتصادية في الاسلام ، كانت في تلك الاونة رائدة علي الصعيد العالمي ، فأول مرة في تاريخ البشرية يعرف الناس العدالة الاجتماعية في الاقتصاد ، وقد اقتبس الغرب هذه الاتجاهات من الاسلام حيث أعاد مفهوم العدالة الاجتماعية تحت اسم الاشتراكية ، وما الاشتراكية الا فهما للاتجاه

(٤١) سيديو ، ل . أ ، تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، عيسى الحلبي ، ط ٢ ، ١٩٦٩م ، ص ١٠٧ .

(٤٢) ويذكر سيديو أمثلة علي ذلك اكراه عثمان علي تقديم حساب عن أموال الدولة ، ووقوف علي للدفاع عن براءته تجاه ادعاء نصراني عليه بالاستيلاء علي سلاحه (سيديو ، المرجع أعلاه ، ص ١٠٨ .

الاقتصادى في الاسلام (٤٣) .

وقد تضمن الاسلام في صدد تحقيق العدالة الاجتماعية ثورة حضارية في مفاهيم الاقتصاد ، وبينما كانت الثورات الاقتصادية قبل الاسلام تأتي من جانب الجماهير المطحونة ضد الاقطاع أو الرأسمالية الطاغية - حيث كانت ثورات من الفقراء علي الاغنياء والحكومات المتسلطة ، ظهر مفهوم العدالة الاجتماعية في الاسلام ليتكفل به الحاكم فتكون ثورة من الحاكم العادل لصالح الشعب ، ومن أبرز الامثلة علي ذلك الحرب التي شنها أبوبكر رضي الله عنه علي مانعي الزكاة من الاغنياء لصالح الفقراء ، حيث أعلن : " والله لو منعوني عقال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لحاربتهم عليه " (٤٤) .

وقد استند توفير العدالة الاجتماعية في دولة الاسلام الاولي أولا علي وجود الحاكم العادل الساهر ، وثانيا علي مبادئ وأركان الاقتصاد الاسلامي .

فتكفل الحاكم العادل برعاية مصالح الرعية وكفالة حق الفقير والمحتاج في ضرورات الحياة من مأكّل وملبس ومسكن ، ويروى في ذلك عن الخليفة عمر بن الخطاب ما ذكره مولاه مزاحم من أنه رأى عمر مغتما عقب توليه الخلافة ، فسأله مزاحم عن السبب ، فأجاب عمر : " لمثل ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الامة الا وأنا ملزم أن أوصل اليه حقه ، غير كاتب اليّ فيه ولا طالبه مني " (٤٥) .

(٤٣) شلبي ، د. أحمد ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي . مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٩ م ، ص ١٧ ويوضح الكاتب أن العدالة الاجتماعية في الاسلام تعد هدفاً ووسيلة ، فهي هدف لتحقيق مجتمع سليم لا يستبد به الاغنياء ولا تتفاوت فيه الثروات والدخول . وهي وسيلة لتوفير جواتعاون والتعاطف بين أبناء المجتمع الواحد (ص ١٨٦) .

(٤٤) د. شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ص ١٨٧ .
(٤٥) السيوطي ، تاريخ الخلفاء . ص ٢٣١ .

وكذا ماروى عن عمر بن عبدالعزيز الذى دخلت عليه زوجته عقب توليه الخلافة فوجدته يبكي ، فقالت : " الشئ حدث ؟ " قال : " لقد توليت أمراً مهمل ففكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، والمقهور المظلوم ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير . وعرفت أن ربي سألني عنهم جميعاً فخشيت ألا تثبت لي حجة ، فبكيت " (٤٦) .

أما مبادئ النظام الاقتصادي الاسلامي ، فقد تضمنت في كفالة حق الفقراء بأموال الاغنياء : الزكاة كحق ثابت محدد ودائم يمثل الحد الأدنى كفريضة علي القادرين ، والى جانب ذلك حق غير محدد وغير ثابت كان الحاكم يفرضه في أحوال الضرورة والظروف الاستثنائية التي يمر بها المجتمع ويتفاوت مقدارها أو نسبته بحسب ظروف الحاجة اليه (٤٧) .

وهكذا حمل رسول الاسلام ومن بعده الخلفاء الراشدين لواء ثورة اجتماعية ظهرت في مجتمع جاهلي تتنازع العصبية الجماعية لعلاقة الدم والقراية ونزعة الفردية القائمة علي التضامن فقط من أجل المصلحة التجارية - بعد أن أصبحت مكة مركزاً هاماً للتجارة تحكمها تقاليد رأسمالية تجارية .

(٤٦) ابن عبدالحكم . سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ١٣٩ .

(٤٧) وذلك عندما لا تفي أموال الزكاة بحاجة أفراد المجتمع في أحوال الضرورة كانقاذ الناس من حلول وباء أو مجاعة أو نفاذ الموارد المالية اللازمة لتمويل رواتب الجند الخ .

(د . أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٣) .

وانطلقت مبادئ الحكم لدى الخلفاء الراشدين من تلك الاسس الجديدة للعدل والمساواة ، تصون أموال المسلمين وترعى مصالحهم فكان الخليفة شديد الحرص علي هذه الاموال يصونها من نفسه ومن عماله ، وكان الخليفة عمر ينبه المسلمين الي حقهم في عمال (ولاية) عدول رحماء أتقياء ، وكان دائم التشديد علي ولاته في انصاف الرعية والرفق بالذميين ، ولايولي عاملا الا كتب ماله قبل أن يذهب الي مصره فاذا عاد معزولا حاسبه (٤٨) .

وكان مصدر حرص الخلفاء الراشدين علي تحقيق العدالة الاجتماعية هو احساس الحاكم المسلم انذاك بمسؤوليته عن رعاية الناس كافة وفي سائر أمورهم ، حتي أنه روى عن عمر رضي الله عنه قوله : " لو أن شاة ضاعت علي نهر الفرات لظننت أن الله سيسأل عمر عنها " (٤٩) ، كما كانت عدالة الاسلام تشمل حتي غير المسلمين من أهل الذمة (٥٠) .

وقد تميز النظام الاقتصادي في دولة الاسلام الاولي بالمرونة والتطور ، ومن أمثلة المرونة ما قام به عمر بن الخطاب من الغاء نفقة " المؤلفة قلوبهم " التي كانت مقررة في عهد الرسول (ص) من بيت المال ، حيث قال عمر : " هذا شيء كنا نفعله يوم كان الاسلام لايزال ضعيف الانتشار ضعيف الدفاع عن نفسه ، أما الان فقد أغني الله عنهم بقوة الاسلام ، فمن شاء فليؤم من ومن شاء فليكفر " (٥١)

(٤٨) حسين ، د . طه ، الشيخان ص ٢٣٤ ، ٧ .

(٤٩) فروخ . المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٥٠) شاهد عمر ذات يوم رجلا مستأجرا يسأل عنه ، فقيل له : هذا يا أمير المؤمنين يهودي " ، فقال لهم : " أيجوز لنا أن نأخذ منه في شبابه جزية ثم نتركه في شيخوخته يستعطي حتي يعيش ، أعطوه من بيت المال ما يكفيه "

وقد تطورت نظم الإدارة تطورا كبيرا في الدولة الإسلامية منذ عهد الأمويين وذلك مع تشعب الأعمال والمسؤوليات في الدولة الإسلامية ، فاتخذ الأمويون في عهد معاوية المساعدين والوزراء ، كما أنشئت الدواوين للإشراف علي الأعمال المختلفة (٥٢) .

كذلك كان للجانب الثقافي والتعليمي في حضارة الاسلام آثاره العميقة علي الحياة الاقتصادية في ظل الدولة الإسلامية ، فكان منطلق الدعوة للعلم الصحيح بنزول القرآن الكريم ، " اقرأ باسم ربك الذي خلق ... اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ... (سورة العلق ١-٥) .

وحض القرآن الناس علي العلم والتعلم في مواقع كثيرة : " لايات لقوم يتفكرون ... " - " هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون " - " رب زدني علما " (طه ٢٠) كما حض رسول الله (ص) علي الاجتهاد في تحصيل العلم : " طلب العلم فريضة علي كل مسلم " (حديث شريف) .

وقد اضطلعت الحضارة الإسلامية بدور كبير في نشر العلوم والمعارف فكانت المساجد الكبرى الجامعة تحتوى علي مكتبات كبيرة ، وكان الخلفاء والحكام المسلمين يتفاخرون ويتبارون في جمع الكتب ، وتحول خلفاء بني العباس من الوقوف عند المجد الحربي نحو اشاعة الحضارة والسلم فنشروا الثقافة والعلوم والفنون والاداب التي تفوق فيها العرب آنذاك علي الروم (٥٣) ، ومن أمثلة الخزائن الكبرى للمكتب

(٥٢) فكان علي رأس الدواوين ، ديوان الرسائل ويشبة أمانة رئاسة الوزراء الان وديوان الجند كسجل للجيش ، وديوان الناس وأعطياتهم وهو مأخوذ به من عهد عمر ، وديوان الخراج لشؤون الضرائب التي تحصل علي الارض .
(٥٣) سيديو ، المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

في عهد العباسيين " بيت الحكمة " في بغداد خاصة في عهد المأمون ، وفي عهد الفاطميين مكتبة " العزيز " (٥٤) التي كانت تضم أكثر من مليوني كتاب .

هذا بينما كانت مكتبات أوروبا الكبرى في العصور الوسطى ، تضم كميات متواضعة من الكتب (٥٥) .

كذلك اتسعت الحركة العلمية بالتأليف والتدوين والبحث في مختلف فروع العلوم والمعارف في مجالات الفقه والتاريخ والقانون وعلم الاجتماع والجغرافية والفلك والطب والرياضة والطبيعة والكيمياء = وكذا في الافكار الفلسفية من خلال المدرسة العقلية (المعتزلة) والمدرسة النقلية (الاشاعرة) ومدارس الصوفية ونظريات الفلاسفة الغزالي والفارسي وابن سينا وابن الهيثم وابن رشد (٥٦) .

وهكذا سار العرب الي منابع فلسفة اليونان العظيمة ، فلم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا أبوابا جديدة لدراسة الطبيعة ، ويصف سيديو (٥٧) دور العرب المسلمين في هذا المجال بأنهم هم الذين حملوا وحدهم لواء الحضارة في القرون الوسطى ، وكان من بواعث فزولهم لسورية وفلسطين ومصر حبهم لتحصيل العلم وحرصهم علي تعجيل رقيه ، كما كان من أهدافهم في ذلك بعث الروابط التجارية القديمة التي كانت تربط شواطئ جزيرة العرب بالاقطار المجاورة ذات الحضارة =

(٥٥) مثال ذلك مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستاند في القرن التاسع الميلادي ومكتبة دير البندكتيين سنة ١٠٣٢ م حيث احتوت الاولي علي ٣٥٦ كتاب والثانية علي مائة (متر ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبدالهادي ريدة ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٦٧م ، ج١ ، ص ٣٢٢ وما بعدها

(٥٦) Sharif, M. M., Muslim Thought, Its Origin and Achievements, London, 1951.

ترجمة الدكتور أحمد شليبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٨ م .

(٥٧) سيديو ، المرجع السابق ، ص ٣٣١ - ٣٣٤ .

وكان أبو جعفر المنصوري في مقدمة الخلفاء الذين حثوا علي النهوض بالحركة العلمية ، فحرص هو ومن جاء بعده من الخلفاء علي رعاية العلم والعلماء في زمن أهملت فيه أوروبا العلوم والاداب بصفة عامة ، فأمر هؤلاء الخلفاء بترجمة أهم الكتب من اليونانية فشاعت دراسة كتب أرسطو وجالينوس وأرشميدس التي عرفها العالم الغربي من التراجم العربية قبل التوصل الي أصولها اليونانية .

ولمع الكثير من المسلمين في الرياضة مثل الحجاج بن مطر ، وفي الفلك مثل محمد النهاوندى ، كما برز في الجغرافيا الاقتصادية المقدسي في منتصف القرن التاسع الميلادى الذى ألف في هذا المجال علي أثر رحلاته الطويلة التي استغرقت زهاء عشرين عاما ، كما أعد علماء المسلمين من الخرائط الجغرافية ما يساعد علي تسهيل الاتصال والتبادل بين الاقطار المختلفة ، ومن هؤلاء الاصطخرى في القرن العاشر والبيروني في القرن الحادى عشر والادريسي في القرن الثاني عشر (٥٨) .

ساهم كل ذلك في تنشيط حركة التجارة في ظل الدولة الاسلامية ، كما تضمنت النهضة العلمية للمسلمين التوصل الي بعض الاختراعات الصناعية والاكتشافات التي أقرت المؤلفات الغربية بفضل المسلمين في التعرف عليها ، كطريقة انتاج الجلد الصناعي والبارود وابرة السفينة وورق الكتابة ومصنوعات المعادن ، وصناعة الزجاج من الحجارة الخ (٥٩) .

٣ - التحول الاجتماعي في علاقات الانتاج وفي القوى المنتجة :

يشكل التاريخ الاجتماعي للإسلام جانبا هاما من مظاهر الطفرة الكبيرة التي حققها الاقتصاد الاسلامي علي الاخص خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين

(٥٨) المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، Sharif .

(٥٩) الميداني ، أسس الحضارة الاسلامية ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ - ١٥٨ .

(١٠ ، ١١ م) من ظهور معالم جديدة للنشاط الاقتصادي تستمد جذورها من الاسلام وقيمه وتولدها عوامل التطور التي ظهرت مع المشكلات الطارئة للتنظيم الاقتصادي التي نجمت عن اتساع رقعة الدولة بفتوحات المسلمين وما أصبح يضمه المجتمع الجديد المركب من جنسبات مختلفة تشارك جميعها في البناء الاقتصادي الجديد . ولم يبدأ الاهتمام بفرع التاريخ الاجتماعي للاسلام الا مع مطلع القرن العشرين (٦٠)

وكان من أبرز التحولات التي تضمنها نظام الاسلام الاقتصادي والاجتماعي ، القضاء علي نظام الشيوعية البدائية التي سادت المجتمع القبلي في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام ، والتي كانت تجعل الثروة التي تحوزها القبيلة من حق جميع أفرادها علي وجه الشيوع ودون تمييز بينهم بحسب جهد وكفاءة كل منهم .

كما تضمنت التحولات الاجتماعية الجديدة القضاء علي النظام الاقطاعي الذي كان سائدا في اليمن بما انطوى عليه من عبودية واستغلال (٦١) .

كما أدى اتساع الفتوحات الاسلامية الي تطلعات جديدة ظهرت لدى أشرف القبائل والقواد العسكريين من حرصهم علي تملك الاراضي بمساحات واسعة ، والاتجاه للاقامة علي أراضيهم وتفضيلها علي الاقامة في المدينة ، حيث تضمنت تلك الحركة تحولا من حالة المجتمع القبلي العسكى الي الاستيطان الزراعي فسي الريف ، مما يمثل نزعة مدنية ، ومما وصفه البعض باتجاه الي ارسقاطية حضرية مالكة (٦٢) .

(٦٠) اهتم بهذا الفرع من دراسة التاريخ في أوائل القرن الحالي جورجى زيدان وتبعه في الثلاثينات أحمد أمين (في مؤلفه فجر الاسلام) ثم برز فيه بصفة خاصة Prof. J. Kramers من ليون في المؤتمر الدولي للمستشرقين في استانبول سنة ١٩٥١ م .

(٦١) د. شلي النظم الاقتصادية في العالم ، المرجع السابق ص ١١٢ .

(٦٢) د. الدورى ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، المرجع السابق ص ٨٩ .

علي أن أبرز مظاهر التحول الاجتماعي التي انعكست علي الأحوال الاقتصادية في عهد ازدهار الاقتصاد الاسلامي قد تمثلت في تنظيم علاقات الانتاج علي وجه ينتفي فيه استغلال طبقة لآخرى بما يتضمنه ذلك أحيانا من اخضاع بعض وسائل الانتاج للملكية وتصفية القطاع ، كما تمثلت تلك المظاهر في ظهور طبقة متوسطة في المجتمع الاسلامي تمثل الفئات المنتجة وتضطلع بدور دافع رئيسي لحركة النشاط الاقتصادي .

أولا : بروز دور الفئات المنتجة كطبقة متوسطة :

تكونت هذه الطبقة في البداية من التجار والجنود الصعاليك الذين بدأوا يحتلون مكانة اجتماعية مرموقة ودور اقتصادي ملحوظ اعتبارا من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، ويطلق البعض علي الطبقة المذكورة فئة البرجوازية تشبيها لها بالبرجوازية الانجليزية التي ظهرت في القرن السابع عشر ، برغم الفارق الكبير الذي سنتبينه بعد قليل .

وكان وراء بروز الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة في الشرق الاسلامي عوامل عديدة فكرية واجتماعية ودينية وظروف مختلفة سياسية واقتصادية تضافرت لتجعل من هذه الطبقة الجديدة حملة للواء الحضارة الاسلامية كما وصفها آدم ميتز (٦٣) .

فمن حيث العوامل الفكرية والدينية ، ضمت هذه الطبقة الجديدة أفرادا مثقفين متفهمين في العلوم الدينية كما ضمت كتاب للحكومة ، فكان هؤلاء هم العقل المفكر والمعبر عن الطبقة المتوسطة ، مارسوا البحث والتفقه في أمور الدين وجمع الاحاديث الشريفة ، وهكذا قام رجال هذه الطبقة بدور كبير في توجيه ثقافة عصرهم عن طريق انماء التشريع الاسلامي وتنظيم احاديث الرسول (ص) وشرح العقيدة

وتفسير القرآن الكريم حتي وصفهم البعض (٦٤) بأنهم كانوا " عصب الاسلام وعطرة الفواح " .

ومن الوجهة السياسية نجد أن صراعات الحكام والمعارضين علي النفوذ خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين دفع بكلا الجانبين للاستعانة بفئة التجار ورجال الاعمال لمساندتهم بما لدى الآخرين من امكانيات تمويلية وخبرة بالدعاية ، وقت كان فيه الحكام قد انصرفوا عن هدف الفتح والتوسع الي السيطرة علي عناصر القوة والنفوذ المالي والادبي في الداخل ، وهنا كان لفئة التجار دورها الملحوظ في التأثير السياسي الذي ساهم في انتهاء حكم الامويين عام ٧٥٠ م وتمكن بعض التجار من الوصول الي مراكز السلطة العليا (٦٥) .

وفي عهد الخليفة المعتمد تولى اعيان التجار السلطة التنفيذية العليا في الدولة (٦٦) .

ومن جهة أخرى كانت ممارسة المهن المختلفة والاعمال الحرفية من نصيب الموالى غير العرب ، وأدى ذلك الي تجمع أصحاب المهن في المدن وصارت لكل حرفة سوقها الخاص بها وتكونت منهم طبقة عاملة ، أصبح لها دورها المؤثر في الحياة الاقتصادية ، كما أصبح مصدر قلق سياسي .

Joseph Schacht, An Introduction to Islamic Law, Oxford, 1964, (٦٤) p. 1FF.

(٦٥) كان أبوسلمة الخلال - تاجر الخل - قائد الدعوة للعباسيين أول من حمل لقب وزير في التاريخ الاسلامي .

(٦٦) وكان أول وزير للمعتمد هو الطحان ابن عمار (الطحان) كما كان من أشهر وزرائه الزيات وهما من طبقة رجال الاعمال ، وخلال القرن الثالث الهجري تولت عائلة الماذرائيين - التي تتكون من تجار ورجال أعمال - السلطة العليا للدولة بمصر . كذلك كان مركز يعقوب بن كلس في عهد الفاطميين حيث كان الوزير الاول لهم (جواثيائين ، المرجع السابق ، ص ١٣٦ - ١٤٣) .

ومع بداية العصر العباسي بدأت الطبقة المذكورة تمارس دورا سياسيا حيث أيدت الدعوة لحكم أسرة العباسيين . وقد كانت عامة اتباع تلك الدعوة من الفلاحين وأرباب الحرف وبعض التجار (٦٧) .

ومن الوجهة الاقتصادية كان وجود هذه الطبقة يمثل أهمية خاصة بالنسبة للنهضة الاقتصادية في الدولة الاسلامية بالشرق الاوسط حيث أن ازدهار التجارة ونمو الاقتصاد قد استند الي جهد وبراعة تلك الطبقة واحساسها بالاستقلال الاقتصادي عن نفوذ الحكام ، فضلا عن احساس أفرادها بالنجاح في أعمالهم والرفاهية في معيشتهم من خلال توافق سعيهم الدنيوى مع حرصهم علي ثواب الآخرة .

وقد امتد تأثير تلك الطبقة أيضا لىحتوى الصناعة ورجالها ، حيث كانت فئة التجار تختلط وتتعامل مع رجال الصناعة من خلال نشاط تسويق المنتجات الصناعية (٦٨) .

وكان من أهم آثار وفعاليات الطبقة المتوسطة الجديدة علي النشاط الاقتصادي في الدولة الاسلامية مايلي :

— شيوع جو الحرية الاقتصادية في التجارة والانشطة الانتاجية ، نتيجة الشعور بالاستقلال الاقتصادي لدى التاجر أو المنتج ، مما أشاع حالة من الرفاهية والرخاء في الدولة الاسلامية .

(٦٧) الدورى ، المرجع السابق ، ص ٨٩ .

(٦٨) هذا وان كان الكتاب والمفكرين المبرزين قد انتموا الي فئة التجار ولم يظهر علماء تلك الفترة من بين رجال الصناعة .

(راجع جواثيائين ، المرجع السابق ، ص ١٤٦)

وكانت حرية ممارسة النشاط الحرفي تتيح للفرد من أية ديانة ، مباشرة العمل في المهنة التي يختارها ، حيث لم تضع الدولة الاسلامية قيودا علي غير المسلمين في النشاط الاقتصادي - عدا تحريم بيع السلع المحظورة شرعا للمسلمين كالخمر ولحم الخنزير ، وبإستثناء الاوامر التي كانت تمنع اشتغال المسلمين في أعمال وضيفة الشأن لحساب أفراد من الاقليات الدينية (٦٩) .

كما كان من قبيل ممارسة الحرية الاقتصادية ما تشكل من نقابات انتظم فيها التجار في عهد الدولة العباسية ، ترعي شؤءونهم وتمنع الغش وتراقب حسن سير المعاملات في المهنة .

- ربط النشاط الاقتصادي بالقيم الدينية نتيجة تفقه أفراد تلك الطبقة في أمور الدين واقتناعهم بأن الكسب وتجميع الثروة لايتعارض مع الاسلام طالما جرى في دائرة الحلال مع أداء حقوق الله .

ويعبر جواثييين عن ذلك الاثر لوجود الطبقة المتوسطة بقوله : " كل ذلك أضي ظلاله علي حياة المسلمين الذين ربطوا مجتمعهم بالتشريع والعقيدة حيث يتأكد وجود الله المطلق وتتوافر وسائل حماية حرية وممتلكات وشرف المواطن المسلم فيتحقق أمن الانسان وسكينته من خلال تعاليم الثقة في رحمة الله التي تعوضه عن مخاوف يوم القيامة " (٧٠) .

(٦٩) كان يمنع زواج العاملين من أهل الذمة في أعمال المجارى والحمامات والكسب مثلا من فئات العائلات المحترمة ولايسمح لهم بالشهادة في مجلس القضاء .

(جواثييين ، المرجع السابق ، ص ١٦٩) .

(٧٠) جواثييين ، المرجع السابق ، ص ١١٨ .

وقد ساعدت حالة الاستقلال والاستقرار الاقتصاديين من خلال ذلك علي تحقيق الحرية الدنيوية فضلا عن تحقيق الامن الداخلي للمجتمع .

- تحرير الاقتصاد من النزعة المتصوفة التي شاعت خلال القرن الثالث الهجرى والتي كانت تدعو لنبذ النشاط الدنيوى والاعتكاف للعبادة والعزوف عن متاع الدنيا . ويلاحظ جوثياين في تحليله أن اتباع الحركة الصوفية في تلك الاونة كانوا في الغالب من الفئات الفقيرة الدنيا ، بينما كان التجار يمثلون الطبقة البرجوازية المتوسطة التي شقت طريقها لمكانة اجتماعية متزايدة بفضل سعيها النشط لتكوين الثروات ، ويشبه جوثياين دور تلك الطبقة بطبقة التجار الناشئة في انجلترا في الربع الاخير من القرن السابع عشر عندما تعارضت مفاهيم الطبقة المذكورة مع مفاهيم الرهبنة المسيحية (٧١) .

- شيوخ التخصص وتقسيم العمل في الاقتصاد ، حيث كان تقسيم العمل الدقيق من أبرز الخصائص التي ميزت الحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادى للطبقة العاملة في الدولة الاسلامية خلال ما يمكن أن نسميه بالعصور الوسطي المتقدمة ، فقد ظهر تقسيم العمل في ممارسة مختلف الحرف ، حتي أن وثائق جنيزة القاهرة - وهي من أهم المصادر التاريخية عن التاريخ الاقتصادى والاجتماعي للفترة المذكورة - قد ورد فيها ذكر ما لا يقل عن ٢٦٥ حرفة وصناعة (٧٢) ، كما أفادت دراسات عديدة أخرى عن وجود عدد أكبر من ذلك من الحرفة المتخصصة في تلك الفترة (٧٣) .

(٧١) مما وصفه ريتشارد ستيل في كتابه The Tradesman's عن الرأسمالية

الانجليزية المبكرة (١٩٨٤ م) .

(٧٢) جوثياين ، المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(٧٣) مثلا : المقرئى ، طبعة الخطوط ، ١٨٥٣ م ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

أما عن علاقات الانتاج في ظل دولة الاقتصاد الاسلامي ، فقد تطورت هي الاخرى في اتجاه تنظيم حقوق الطبقة العاملة من الفلاحين في الزراعة أو العمال والاجراء في الصناعة ، مما نرجيء بيانه ببعض التفصيل الي المبحث التالي •

ويمكن القول هنا أن هذا التطور قد تضمن في الزراعة ظهور عدة نظم تحكم علاقة الزراع بالمالك وبالأرض كالمزارعة والمخابرة والمساواة والمغارسة (٧٤) •

أما في الانتاج الصناعي والحرفي فقد تحددت علاقات العمال الاجراء بأرباب العمل في اطار فئات كالصبيان والاجراء والصناع غير المهرة ، وان كان قد لوحظ أن أصحاب الحرف في هذه الفترة لم يشكلوا بوجه عام طبقة عاملة موحدة فسي مواجهة طبقة الرأسمالية من أرباب العمل كما أن الانتاج الصناعي بصفة عامة كان قاصرا علي العمل العائلي في محلات صغيرة (٧٥) •

وقبل أن نترك الحديث عن ظهور الطبقة المتوسطة في النظام الاقتصادي لدولة الاسلام ابان ازدهارها ، نبدى ملحوظتين عن دور هذه الطبقة الجديدة في بعث النشاط الاقتصادي مع مقارنته علي ما يطلق عليه برجوازية انجلترا في القرن السابع عشر :

والملاحظة الاولى أن دور هذه الطبقة في الاقتصاد الاسلامي كان يتميز بمزاولة نشاطها في اطار من القيم الدينية التي تبدأ من تقوى الله في كل عمل وطلب المثوبة في الآخرة بالاحسان وتجنب المحرمات ، وهي في هذا تتميز تماما عن طبقة البرجوازية الانجليزية التي أشار اليها

(٧٤) الرفاعي ، أنور ، الاسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر ، دمشق ،

١٩٧٣م ، ص ٢٨٠ •

(٧٥) جواثياين ، ص ١٧٠ •

توينبي في حديثه عن التحولات الاجتماعية بانجلترا خلال القرن السابع عشر
(٧٦) •

والملاحظة الثانية هي أن الدور النشط للطبقة المتوسطة المشار إليها -
في اقتصاد الدولة الإسلامية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين - هو بالاحرى
أقرب شيها بدور فئة المنظمين Entrepreneur الفعال في الاقتصاد الاوربي خلال
القرن التاسع عشر تلك الفئة التي تصدت بروح المبادرة الخلاقة لبعث النشاط
والتجديد في الانتاج بما يحمله ذلك من تحمل المخاطر الانتاجية ، هذا وان كان
نشاط الطبقة المتوسطة المذكورة في الاقتصاد الاسلامي قد تميز كما ذكرنا بالطابع
الديني الاخلاقي لاشتغال الكثيرين من أفرادها بالفقه وفروع الدراسة الدينية
واضطلاعهم بدور مؤثر في توجيه ثقافة عصرهم .

ثانيا - تكافؤ الفرص في منفعة وسائل الانتاج الرئيسية واتجاه مقاومة
الاقطاع :

وكانت تلك هي السمة الاخرى البارزة في التحولات الاجتماعية لدولة الاسلام
في اقتصار القرون الوسطى المتقدمة ، حيث ترتب علي اتساع الفتوحات الاسلامية
امتداد رقعة المساحات من الارض الزراعية التي يسيطر عليها المسلمون ، وتضمنت
تلك الاحداث اتجاهين متضادين :

أولهما : اتجاه الخلفاء المسلمين الي تدمير الاقطاع القديم في منطقة
الهلال الخصيب ، حيث كانت هذه الاراضي أصلا ملكا للفتات الارستقراطية
والاقطاعيين من الفرس والبيزنطيين ، فقرر الخلفاء الامويون توزيع ملكية أراضي
الصوافي باقطاعها الي بعض الانصار والاقرباء فتولدت عن حركة توزيع الارض علي
هذا النحو ظهور طبقة جديدة من الملاك الزراعيين أصبحت معها غالبية الملكيات

الباقية في حيازات صغيرة الي جانب الملكيات المشتركة لاهل القرية (٧٧) ▪

والاتجاه الثاني هو مابداً في عهد عمر بن الخطاب ، حين افتتح المسلمون السواد بالعراق فطلبوا من عمر رضي الله عنه قسمته بين الفاتحين ، فرفض قائلاً : " فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ " فأخاف أن تفسدوا بينكم في الحياة وأخاف أن تقتتلوا " وعن أسلم بن عمر أن عمرا قال " لولا أنني أترك الناس يبابا لا شيء لهم - ما فتحت قرية الا قسمتها كما قسم رسول الله (ص) أرض خيبر "

وكتب عمر الي سعد رضي الله عنه : " و اترك الارضين والانهار لعمالها
..... فانك ان قسمتها فيمن حضر ، لم يكن لمن يجيء بعدهم شيء " (٧٨) ▪

وهكذا رعي عمر بن الخطاب حق كافة المسلمين في ريع الاراضي الزراعية التي اكتسبتها الدولة الاسلامية بالفتح ، وأبي أن يختص بها الجند من الفاتحين فيكون بينهم التنازع عليها ويكون الافتيات علي حق باقي المسلمين علي هذه الاراضي ، وهو مادفع بعمر رضي الله عنه الي اقرار أهل السواد في حقهم علي أراضيهم مع ضرب الجزية علي رؤءوسهم والخراج علي الاراضي ▪

وحيث تعتبر الارض الزراعية من بين وسائل الانتاج الاساسية فان اتجاه عمر كان بمثابة حماية لحق انتفاع المسلمين كافة بجانب من ريع هذه الاراضي ، ممثلاً في الخراج الذي فرض علي أصحابها ، ويذهب البعض (٧٩) الي أن تصرف عمر في هذا الصدد قد انطوى علي نوع من اقرار الملكية العامة للارض ▪

(٧٧) الدوري ، مقدمة في تاريخ نور الاسلام ، المرجع السابق ، ص ٨٧ ▪

(٧٨) ابن الجوزي ، أبي الفرج عبدالرحمن ، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، تحقيق زينب القاروط ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٠ م
، ص ٩٢ ، ٩٣ ▪

(٧٩) شلبي ، د. أحمد ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، ص ٢٣٠ .

كما اتخذ عمر بن عبدالعزيز موقفا من الملكية الاقطاعية للاراضي الزراعية التي تركزت في أيدي كبار الملاك ، وخاصة عندما لوحظ ترك الفلاحين لاراضيهم تخلصا من عبء الضريبة والهجرة للمدن ، حيث خشي عمر من توسع الملكيات الكبيرة علي حساب الملكيات الصغيرة والاراضي المشتركة للقرية فاتخذ بعض التدابير المالية بهدف الحيلولة دون تركر الملكية الزراعية في أيدي فئة قليلة فكان من تلك الاجراءات التمييز في الضريبة بين الاراضي المزروعة وغير المزروعة كما اعتبر الخراج ايجارا للارض لا ضريبة علي أهل الذمة (٩٠) وأخذ بروح التنظيم الذي بدأه الخليفة عمر بن الخطاب من اعتبار الاراضي الخراجية وقف علي الامة الاسلامية كافة ، قام عمر بن عبدالعزيز بمنع الملاكين العرب من شراء الاراضي الخراجية وتحويلها الي أراضٍ عشيرة ، بل استرد ماسبق أن منحه بعض الخلفاء السابقين من أراضٍ وزعت كهبات علي بعض الناس فأعادة لملكية الدولة (٩١)

وهكذا كان تطور العلاقات الانتاجية وأوضاع تملك وسائل الانتاج الرئيسية وخاصة الاراضي الزراعية في اتجاه الوقوف ضد سيطرة فئة مالكة تتركز في يدها الملكية علي فئة تزرع ولا تملك ، وهو تطور كان يتلاءم دائما مع روح الشريعة الاسلامية دون جمود عند مواقف معينة اتخذها بعض الخلفاء أو حتي ارتآها رسول الله (ص) في ظل ظروف معينة .

ولقد كان هذا التطور مما استلزمته مواجهة مشكلات التنظيم الاقتصادي الطارئة علي مجتمع الدولة الاسلامية المتنامية بما اشتمل عليه تكوين هذا المجتمع من تركيبة جديدة اختلط فيها العرب بالفرس والمصريين والروم وغيرهم ، وكان اتجاه عمر بن الخطاب رائدا في هذا الصدد عندما اتخذ من الاجراءات مايكفل الحيلولة دون قيام ارسقراطية عسكرية تتركز في يدها ملكية الاراضي المفتوحة علي حساب حق الكافة من المسلمين في خراج الارض ، وعندما حال أيضا دون انغماس الجند في الاستغلال الاقتصادي والتدخل في الشؤون المدنية (٩٢) .

(٩٠) الدوري ، المرجع السابق ، ص ٨٢ .

(٩١) شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٩٢) راجع عثمان ، فتحي ، التاريخ الاسلامي والمذهب المادي في التفسير ،

مرجع سابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

المبحث الرابع

تطور القطاعات الرئيسية في ظل الاقتصاد الاسلامي

"وأن ليس للانسان الا ما سعي" (النجم ٣٩)

١ - الزراعة

أصول المكاسب في الاسلام ثلاثة : الزراعة والصناعة والتجارة ، ولكن الزراعة لها منزلة متقدمة علي غيرها كما ورد في كتب الفقه ، حيث قال الماوردي أن " الزراعة أطيب لانها الي التوكل أقرب " وقال النووي بأفضلية الزراعة " لعموم النفع بها للادمي وغيره وعموم الحاجة اليها " " ولان نفعها يتعدى الي غير الزراع من الطيور والبهائم " (٩٣) .

لذا نظر المسلمون الاوائل في صدر الاسلام الي الزراعة كمصدر طيب للربح والي الارض كثروة محترمة ، وكان الرسول عليه السلام يشجع الزراعة ويقطع الاراضي الصالحة للزراعة لمن يتعهدا بالاستثمار وحفز المسلمين علي احياء الارض الموات .

وقد دفعت رعاية الدولة الاسلامية للزراعة وتنظيم الري واصلاح الترع والقنوات بالانتاج الزراعي للنمو والازدهار ، فعني بذلك معاوية في الشام وعمرو بن العاص في مصر ، وفي عهد الحجاج بن يوسف الاموي حفرت الانهار وأقيمت القناطر والسدود وأصلحت الجسور (٩٤) .

(٩٣) الحبيشي ، أبو عبدالله محمد الوهابي ، البركة في فضل السعي والحركة .

دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨٢ م ص ٨ ، ٩ .

(٩٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ص ٢٩٠ .

ونظمت شبكات الري المحكمة في مصر والعراق وإيران والاندلس وغيرها ، وتنوعت طرق الري ووسائله وطبق حكم الشريعة في كون الماء حق للجماعة لايحل لفرد بيعه أو شراؤه (٩٥) =

وأُنشئ في مدينة سرو شرقي فارس " ديوان الماء " لتنظيم شؤن الري واتخذت المقاييس علي مواضع مختلفة من الانهار وعند السدود حيث يجري تقسيم الماء علي المساحات المنزرعة بحسب مستوى ارتفاعه ، وشقت في شرقي فارس قنوات للري في باطن الارض تغلونها القنوات ، وذلك لتخطيط محكم يكفل انسياب المياه (٩٦)

واهتم المسلمون بتنمية الانتاج الحيواني والدواجن كما اهتموا بالصناعات الغذائية وتجهيز المنتجات الزراعية كعصر واستخلاص الزيوت النباتية والسكر من القصب واستخراج العطور من الورد والزهور المختلفة كالبنفسج والقرنفل والياسمين (٩٧) =

وقد توسع المسلمون في عهد الدولة الاموية في تملك وحيازة الارض وزراعتها (٩٨) وعني الامويون باستصلاح الاراضي عن طريق تجفيف المستنقعات في البطائح جنوبي الطرق وكذا احياء الارض المواتي •

(٩٥) وفي هذا يوضح آدم متر أن الجانب الاكبر من نظم وتشريعات الحياة ، والري في أوروبا إنما هي مقتبسة من التشريع الاسلامي المشار اليه •

(٩٦) ابراهيم ، حسن ، تاريخ الاسلام ج ٢ ، ص ٣٠٨ •

(٩٧) حتي ، تاريخ العرب ترجمة مبروك نافع ، ط ٣ القاهرة ١٩٥٢م ج ٢ ، ص ٤٤٠

(٩٨) وتمثل هذا الاتجاه في السعي لتحويل الاراضي الخراجية الي أراض عشورية

وتملكها في الربع الاخير من القرن الاول الهجري ، كما توسع الخلفاء

الامويون في اقطاع الصواني (الاقطاعيين الهاربين) الي أنصارهم وأقربائهم

(راجع : الدورى : ص ٨٦ ، فتحي عثمان ، ص ٢٩ مرجعين سابقين) •

ومع اتجاه الملاك الجدد للاراضي الزراعية للانتقال من المدن والاقامة علي أراضيهم في الريف ، ساعدت الزراعة علي انتقال المجتمع من الحالة القبلية الحربية الي طور الزراعة والحياة المدنية .

وفي العهد العباسي ازدهر نشاط الزراعة بشكل ملحوظ ، مع استقرار الامن والاعتدال في جباية الخراج ، وكانت انتاجية الزراعة مرتفعة علي وجه الخصوص في العراق حيث تتميز الاراضي بالخصوبة ، حتي أن حصيد الخراج من أرض السواد العراقية بلغت في بعض السنوات مايقرب من ثلث خراج الدولة بكاملها .

وقد عني وزراء العهد البويهي بصفة خاصة بتنظيم الري وتطهير الانهار وسد الثقوب لمقاومة مخاطر الفيضانات (٩٩) واهتم الوزير فخر الملك باصلاح الاراضي الزراعية حيث كان يشرف بنفسه علي ذلك (١٠٠) ، وكان من رسائل الوزير خواسده لتنمية الزراعة وتشجيعها ، اقطاع مساحات كبيرة من الاراضي الصالحة للزراعة حول مدينة حيران لبعض القبائل العربية (١٠١) ، كما قام الوزير بنظام الملك في العهد السلجوقي باقطاع الاراضي للقبائل التي يتكون منها الجيش السلجوقي من أجل توفير الاستقرار واستتباب الامن مما ساعد علي ازدهار الزراعة (١٠٢) .

وكان من ثمار تلك الجهود في العصر العباسي ، ارتفاع الانتاج من المحصول الزراعي ، ومن أمثلة ذلك تحسن غلة الزراعة في عهد الوزير هبة الله بن المطلب بنسبة ٦٥ / بفضل جهود الوزير المذكور في اصلاح الاراضي وتنمية مواردها ومراقبة العاملين فيها (١٠٣) .

(٩٩) الزهراني ، محمد مسفر ، نظام الوزارة في الدولة العباسية : العهدان

البويهي والسلجوقي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٠ م ، ص ١٧٩ .

(١٠٠) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٧ ص ١٦٨ .

(١٠١) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ .

(١٠٢) حسين أمين ، المرجع السابق ، ص ٢٠٩ .

(١٠٣) أمين ، حسين ، العراق في العصر السلجوقي ، ص ٢٠٦ ، ٢١٠ .

علاقات الانتاج وأدوات وفنون الانتاج وأنواع الحاصلات :

سادت في ظل الدولة الاسلامية عدة نظم تحكم علاقة الزراع بالارض منها الايجار ومنها المزارعة حيث يمول المالك نفقات الاستثمار الزراعي ويتعهد الفلاح المحصول ، وكذا الخابرة حيث يقوم المالك ببذر الارض ورعاية الزرع ثم يتعهد الي الفلاح بالحصاد ، وفي الحالتين الاخيرتين يؤول الي الفلاح جانب من المحصول ، ومنها كذلك المغارسة بأن يعهد مالك الارض الي الفلاح بغرس الاشجار ويمنحه حق استغلالها لسنوات ثم يتقاسم معه الارض المغروسة في نهاية مدة العقد ، وأخيراً استخدم نظام المساقاه بأن يعهد المالك ببستان الي الفلاح الذي يرعاه مقابل نصيب في الثمار عند جنيها ، مع تحمل المالك بأية تكاليف استثمارية (١٠٤)

وقد عرف عن وزراء العهد البويهى حرصهم علي تنظيم العلاقة بين الدولة والمزارعين ، فضلا عن تيسير اجراءات وقواعد جباية الخراج كما سيأتي (١٠٥) .

أما عن فنون وأدوات الزراعة فقد استخدم المسلمون الآلات المائية لرفع المياه كالدولاب والغرافة والناعورة ، أما أدوات العمل الزراعي فكانت غالبا بسيطة كالمحراث البسيط الذى تجره الدواب ، وان كانت المصادر التاريخية نادرة في هذا الخصوص (١٠٦) .

وقد أدخل المسلمون الي الاندلس نظام زراعة المدرجات في الجبال ، كما استخدموا دليلا لمواعيد زراعة الحاصلات المختلفة يسمى تقوم القرطى ، انتقل فيما بعد الي سائر أوروبا (١٠٧) .

(١٠٤) الرفاعي ، الاسلام في حضارته ونظمه ، المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(١٠٥) الزهراني ، المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

(١٠٦) الرفاعي ، المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

(١٠٧) حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٣٠٨ .

أما عن أنواع الحاصلات الزراعية فقد تنوعت في عهود الدولة الإسلامية تنوعاً كبيراً وتحسنت أصنافها ، ومن ذلك حاصلات الحبوب كالقمح والشعير والارز ومن الأشجار ومن المواد الخام الزراعية القطن وقصب السكر والكتان ومواد الصباغة

السياسة المالية وتنمية الزراعة :

وقد استخدم الحكام المسلمون أدوات السياسة المالية لتنمية وتشجيع الزراعة ، وذلك علي وجه الخصوص في ظل العهد العباسي ، فعندما لاحظ الوزير أبو محمد المهلبى تدهور الانتاج الزراعي وإهمال الناس لعمارة الاراضي الزراعية بسبب وطأة أموال الخراج المفروضة علي الارض دون تمييز بين أرض وأخرى من حيث إنتاجيتها أو نوع المحصول ، اجتمع الوزير بكبار الملاك الزراعيين وتدارس معهم الوضع وجرى الاتفاق علي تخفيف عبء التحصيل وجعله أكثر ملاءمة حيث تأخذ الدولة العشر من الانتاج حبا (عينا) أيا كان حجم الانتاج ، وذلك بعد أن كان المستحق هو العشر عن كل جريب (وحدة قياس مساحة للارض) من الحنطة وعشرين درهما عن الجريب من الشعير ، كما تصالح المهلبى مع أهالي البصرة عن متأخراتهم الضريبية علي أن يدفعوا للدولة مبلغا معيناً ، وساعدت هذه الاجراءات بالفعل علي دعم الانتاج الزراعي وتنشيط تعمير الاراضي الزراعية وانتعشت تجارة الحبوب وزاد نصيب الدولة منها ، كما ارتفع دخل الدولة من حصيلة الضرائب (١٠٨) .

كذلك وافق الوزير المهلبى علي ارجاء سداد المستحقات الخراجية الي موعد حصاد المحصول تجنباً لاثقال كاهل الزراع بالمديونية بل أمد الفلاحين غير القادرين بالسلفيات النقدية والعينية علي أن يسددوها عند جني المحصول (١٠٩)

(١٠٨) مسكويه ، تجارب الامم ج ٢ ص ١٢٩ (راجع الزهراني ، والمرجع السابق

ص ١٢٨) .

(١٠٩) الزبيدي ، العراق في العصر البويهي .

٢ - الصناعة والتعدين :

يذكر في بيان فضل الصناعة في الاسلام ماورد في سورة سبأ اشتغال نبي الله داوود في صناعة الدروع ، اذاستجاب الله لدعاه بأن يعلمه عملا منتجا يستغني به ويغني عياله ، فالان الله عزوجل له الحديد وعلمه صنعة الدروع وأوصاه باتقانها : " ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد ، أن يعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا . . . " (سبأ ١٠ ، ١١) .

وقد كان للنشاط الصناعي دور كبير في النهضة الاقتصادية في دولة الاسلام فبينماهدأ نشاط الحروب والفتوحات في ظل الدولة العباسية احترف كثير من المسلمين المهن الصناعية واتسع النشاط الصناعي مع ازدهار مستوى المعيشة ونماء الثروة ومظاهر الترف ، حيث زادالطلب علي المنتجات الصناعية مع اتساع السوق كما توافرت المعرفة الفنية بأنماط السلع الصناعية والمواد الخام اللازمة لانتاجها مع انتشار تجارة المسلمين واتساع رقعتها .

فكانت أهم الصناعات المنسوجات بأنواعها - صوفية وحريرية وقطنية - فاشتهرت الشام بالانسجة الحريرية المشجرة ، وتزعم العرب تجارة الحرير في العالم خلال القرون الوسطي ، ونسبت أسماء بعض المنسوجات الي مواطنها في الدولة الاسلامية كالفستان (الفسطا ط) والداماسك (دمشق) والموصلين (الموصل) . وتوطئت بعض الصناعات في مناطق اشتهرت بها كمنسوجات الكتان في فارس ، والاقمشة القطنية في العراق وخرسان ، كما اشتهرت فارس بصناعة السجاد (١١٠) .

ومن الصناعات المعدنية تقدمت صناعة الصياغة وتطعيم المعادن المختلفة ، كما اشتهرت دمشق بصناعة الاسلحة والحديد والصلب والموصل بالانبة والمصنوعات النحاسية ، ومن الصناعات المعدنية السكر في مصر وفارس ، والزيت ومنتجات

التقطير والمشروبات في الشام ، وغير ذلك من الصناعات التي ازدهرت في عهد الدولة الاسلامية كثير مثل صناعات الورق (١١١) والزجاج الملون والفخار والخزف والجلود ... الخ .

كذلك كان لتقدم صناعة البناء والتشييد دورها في الازدهار العمراني الذي تمثل في اقامة وتشييد القصور والمساكن الانيقة .

وكان للتقدم العلمي الذي حققه المسلمون أثره علي التقدم الفني في الصناعة والملاحة والحرب ، فقد كان للمسلمين فضل اكتشاف العديد من المخترعات النافعة التي وصفها البعض بأنها قلبت وجه الدنيا (١١٢) مثل الورق الرخيص الكلفة وأثره في نشر العلم والمعرفة وبارود المدافع والبوصلة أثرهما في تقدم امكانيات الحرب وفنون الملاحة واستخدموا قوة مياه الانهار والرياح في توليد القوة المحركة للطواحين .. وحتى ما لا يرجع الفضل في اكتشافه أصلا للمسلمين من تلك المخترعات ، قد كان لهم فضل نشره في أنحاء العالم .

وفي نشاط التعدين عني المسلمون باستخراج المعادن والاملاح المختلفة وكذا الاحجار الكريمة وأحجار البناء ، وذلك من مختلف أنحاء الدولة الاسلامية وخاصة في عهد العباسيين ، فاستخرج الذهب والفضة من مصر والسودان والمغرب العربي والحجاز وكرمان وخراسان كما استخرج الحديد من الشام وكرمان وفارس .

(١١١) كان دور العرب بارزا في تطوير صناعة الورق التي كانت تعتمد فيما سبق علي الحرير في سمرقند وبخارى ، فأدخل العرب (يوسف بن عمرو) القطن ثم الكتان وشاع استخدام ورق العرب في القرن الثالث عشر الميلادي وانتشر في فرنسا وايطاليا وانجلترا والمانيا ، وكان ورق المخطوطات العربية يفوق انتاج الدول الاخرى رونقا وصقلا .

(سيديو ، المرجع السابق ، ص ٤٢٥)

(١١٢) سيديو ، المرجع السابق ، ص ٤٢٥)

التنظيم وعلاقات الانتاج في الصناعة ١

كان الانتاج الصناعي في الدولة الاسلامية يعتمد علي العمل العائلي بالاساليب التقليدية فكانت وحدات الانتاج صغيرة الحجم عدا مصانع الورق (١١٣) فكان يمتلك أدوات الانتاج البسيطة التي يمارس بها حرفته بصفة مستقلة ، أما العمال الذين كانوا يعملون بأجر لحساب غيرهم فكانوا ينقسمون الي فئات ثلاث (١١٤) ١ الصبيان تحت التمرين ويرتبطون برب العمل بعلاقة شخصية طويلة الاجل ، والاجراء وكان ارتباطهم عادة بغير عقود محررة ، ثم جاء الصناع غير المهرة كصبيان المأموريات والرقاصين •

كما حكمت علاقات النشاط الصناعي في كثير من الاحيان — خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر — المشاركات الحرة التعاونية في الانتاج والتجارة • وذلك في العديد من الصناعات والحرف منها صناعة الزجاج والصباغة وصياغة الذهب ونسج الحرير • وكان نظام المشاركة يشمل الاشتراك في رأس المال والعمل والادوات (١١٥) وأحيانا كانت المشاركة تعتمد علي اقتراض رأس المال من آخرين ، وبصفة عامة كانت التكاليف تقسم بالتساوي كما تقسم الارباح في نهاية المدة ، كما وجد نوع من المشاركة في شكل مودعة حيث يودع الممولين أموالهم لدى بعض التجار أو الصناع والحرفيين لاستثماره لحسابهم بشروط متساهلة (١١٦) •

(١١٣) اذ كان يملك تلك الصناعة في البداية الحكام والخلفاء ثم آلت الي الطبقة المتوسطة — السالف الاشارة اليها — بما يملكه هؤلاء من مقدرة تمويلية كذلك كانت بعض مصانع السكر مملوكة لاصحاب رؤوس الاموال الذي يعتمدون علي العمل الاجير •

(١١٤) جواثياين ، المرجع السابق ، ص ١٧٠ •

(١١٥) وتراوح مدت الشركة بين ستة شهور وخمس سنوات •

(١١٦) جواثياين ، ص ١٨٠ — ١٨٢ •

وقد تميز التنظيم الصناعي في الدولة الإسلامية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين بميزتين :

أولاهما : الحرية الاقتصادية في ممارسة المهن المختلفة ، حيث لا قيود من ديانة أو جنسية (١١٧) ، وهذه الحرية الحرفية كان يكفلها النظام الاجتماعي السائد والذي لم يكن يتضمن وجود نقابات تقيد دخول الحرفة باشتراطات معينة ، وساعد ذلك علي تطور الحرف وارتفاع انتاجيتها بسبب روح المبادرة الفردية والمنافسة ، ولم يكن يتعارض مع ذلك وجود وكلاء من جانب الدولة يشرفون علي المهن المختلفة لمنع الغش .

والثانية - هي شيوع ظاهرة تقسيم العمل الي حد التخصص الدقيق ، فانقسام صناعة الاحذية وحدها الي خمسة فروع علي الاقل والمصنوعات الجلدية الي صناعات السروج والقرب والحقائب .. الخ (١١٨) .

وقد ترتب علي تقسيم العمل الدقيق ارتفاع مستوى الكفاءة الانتاجية مما بلغ الي درجة الابداع والمهارة الفائقة في العديد من الحرف كصناعة الادوات والقطع المعدنية والخرفية والمنسوجات المشغولة والاعمال الخشبية علي أن تقسيم العمل علي ذلك الوجه لم يمنع من انتماء الصناع والحرفيين من مختلف الحرف الي طبقة اجتماعية واحدة .

(١١٧) أتاحت هذه الحرية الاقتصادية تخصص اليهود في بعض الحرف والصناعات مما يرجع تخصصهم فيها لعوامل تاريخية ، كتخصصهم في نسج الحرير والكتان بالتوارث في نطاق عائلي (جوثاين ، المرجع السابق ص ١٦٩) .

(١١٨) كما تفرعت حرفة النجارة الي نشارين وصانعي صناديق وخراطين بل كان في هذا العصر من الصناعات ما لم يعد له وجود في الوقت الحاضر كصانعي الاقفال الخشبية للابواب وصانعي عصي الكحل (جوانياين ص ١٩٦٣)

وكان من نتائج تلك الأوضاع التي سادت ممارسة الصناعة في الدولة الإسلامية ، بروز ظاهرتين ساعدتا علي تحقيق ما يعرفه الاقتصاد الحديث بوفورات الانتاج نتيجة للتوطن Economics of Localization وعلي شيوع التقدم الفني في الصناعة نتيجة انتشار الاسلام عبر دول حوض البحر الابيض المتوسط .

فقد بدأت منذ هذا العصر ظاهرة توطن الصناعات المختلفة كل في منطقة أ وحي معين في نطاق المدن ، يدل علي ذلك ما تردد في وثائق جنيزة القاهرة من ذكر درب الخراطيين ودرب الصوافين ودرب النحاسين ... الخ .

وكان هذا التوطن أو التركيز الحرفي يرجع أما لاغراض تقنية ١ لاغراض ادارية لتسهيل اشراف الحكومة علي نشاط العمل .

والظاهرة الثانية هي دولية الصناعات والحرف التي جرى تناقلها عبر دول حوض البحر الابيض المتوسط بفضل انتشار الاسلام الذي أظل تلك الدول عندما غطتها فتوحاته ، ففي ظل الاسلام كان الاختلاط الحر الذي امتزجت فيه الشعوب من أطراف الصين الي حدود فرنسا في نطاق التبادل السلعي وتبادل الخبرات الفنية والتعرف علي مواصفات السلع .

ففي تلك الاونة قدم الي مصر صناع من أسبانيا ومن ايران ومن بيزنطة - كان من بينهم الصاغة والصباغين والنساجين ، كما قدم صناع الزجاج وغزالي الحرير من سوريا وفلسطين ، كذلك جرى انتقال الخامات من بعض تلك الاقطار لتجرى عليها عملية التصنيع في أقطار أخرى (١١٩) .

(١١٩) ومن ذلك انتقال الكتان المصري من الدبقي في مصر الي كازرون وتوز في فارس ليصنع منه النسيج الذي يطلق عليه الدبقي .
(جواثياين ، ص ١٧٣) .

وهاجرت الكثير من الصناعات بين تلك الاقطار كانتقال صناعة السجاد الطبرى من طبرستان (جنوبي بحر قزوين) الي أماكن عربية أخرى (١٢٠) =

٣ - التجارة والمواصلات :

بعد عهد الفتوحات الاسلامية وعندما استتبّت الاحوال ودانت للمسلمين الشام والعراق وفارس ومصر ، وتوحدت السلطة في تلك الارزاء ، ازدهرت التجارة واتسعت فبلغت أوجها في العهد العباسي . وكانت العوامل الرئيسية لنماء تجارة المسلمين اتساع رقعة البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي مما يقدر بمثل مساحة أوروبا وكذا وحدة العملة المستخدمة في المبادلات وتقدم الانتاج الصناعي وتنوعه وارتفاع مستويات المعيشة والدخول والثروات ومظاهر الترف .

وكان لارتياح التجار العرب لبعض البقاع بشجاعة ما ساعد علي تقدم الكشف الجغرافية ، فبلغوا سواحل افريقيا الشرقية والهند والملايو والصين وروسيا وألمانيا وانجلترا ، وهكذا شقت تجارة العرب طريقها في اتجاهات عديدة فيما بين أسبانيا والمغرب ومصر والحبشة وجزيرة العرب وفارس وروسيا والهند والصين . وذلك عبر مكة والمدينة والكوفة وبغداد ودمشق ، فظهرت مراكز جديدة للمبادلات كحلب والبصرة والقاهرة والاسكندرية وبغداد .

كما تنوعت أصناف السلع التي تحملها تجارة المسلمين فضمت القصدير والذهب والاحجار الكريمة من الهند والخزف والعمود من الصين والجلود من روسيا والزيوت العطرية والصوف والكتان من فارس (١٢١) =

(١٢٠) وكذا انتقال لباد طالقان (شمالي ايران) ليصنع في قلعة حماد بالجزائر وكذا في ليبيا ، وذلك خلال القرن الحادى عشر الميلادى (المرجع أعلاه) .

(١٢١) الرفاعي ، ص ٣٠٦ - ٣١٦ ، سيدىو ، ص ٤٢٠ .

وتدعمت الوسائل والمرافق المساعدة التي تخدم تسهيل التبادل التجاري فمدت الطرق وانتظم البريد وأقيمت الفنادق وخانات التجارة في مفترق الطرق لتنشيط حركة السفر ، كذلك عرفت الموازين والمكاييل بأنواعها المختلفة .

وقام عمر بسك نقود اسلامية وتمتعت العملات الاسلامية بالقبول في سائر الدول (١٢٢) واستخدمت أوامر للدفع تسمى " السفاتج " والحوالات كما تعامل المسلمون في الاوراق التجارية في شكل صكوك وانتشرت مكاتب الصيارفة والمحاسبين (١٢٣) .

كذلك نشطت حركة الملاحة البحرية لاساطيل المسلمين عبر البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي وبلغت بسفن المسلمين موزامبيق وموانيء الصين واتسعت حركة السفن في مواني طرابلس بالشام وعيذاب وعدن .

ولم يكن لاوربا خلال القرن العاشر الميلادي سلطان علي البحر الابيض المتوسط . فكان بحرا عربيا ، وكان لا بد لمن يرتاده أن يخطب ود العرب ، كما فعلت نابلي وغيرها (١٢٤) ، كذلك كانت التجارة مع الهند والصين في المحيط الهندي حكرًا علي العرب .

(١٢٢) كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس واستمر ذلك حتي عهد عمر الذي قرر علي أثر اتساع الفتوحات الاسلامية ، توحيد وزن الدرهم - حيث كانت تتعدد أوزان الدراهم الكسروية وتم ضرب دراهم اسلامية عام ١٨ هـ عليها عبارات لا اله الا الله والحمد لله ، وزن ١٤ قيراط مثقال (الخضرى ، المرجع السابق ص ٩٤ - ٩٥) .

(١٢٣) آدم متر ، المرجع السابق ص ١٥٤ .

(١٢٤) وكانت الملاحة الاوربية ضعيفة في ذلك العصر ، فقد غزت سفن الفاطميين جنوب فرنسا سنة ٩٢٥ م ، كما غزت مدينة جنوة بايطاليا سنة ١٠١١ م .
(آدم متر ص ٣١٧) .

وقد أرسى المسلمون في تلك الفترة قواعد في الملاحة البحرية ، شاعت في أوروبا واقتبست منها الدول المختلفة ، كما استخدم العرب في وقت مبكر ابلة البوصلة لتحديد اتجاهات الملاحة (١٢٥) .

وبلغت فئة التجار مكانة اجتماعية مرموقة في القرون الاولى للاسلام (١٢٦) وواصل الكثير منهم مهنة آباءهم بالرغم من توليهم بعض مناصب الدولة ، واشتغال بعضهم بالفقه وجمع الاحاديث الشريفة (١٢٧) ، بل اضلعت فئة التجار كما سلف بيانه بدور هام في توجيه الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية كطبقة متوسطة جديدة يشبه الي حد ما دور البرجوازية في أوروبا .

(١٢٥) راجع : مصباح ، د.أحمد ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ط ٢ ، ١٩٧٨ م ، سيدو المرجع السابق ص ٤٢١ .

(١٢٦) هذا وان كانت بعض المؤلفات قد أغفلت ابراز أهمية طبقة التجار لانصراف اهتمامها بأختيار فئة الحكام والقواد العسكريين ، مما تشكك معه البعض في مدى الاحترام الذي كانت تتمتع به مهنة التجارة في عهد الامويين (راجع : جواثايين ، ص ١٣٠) .

(١٢٧) ومن هؤلاء سعيد بن المسيب وهو شريف قرشي كانت تجارته القماش ولقب ب " مشرع أهل المدينة " كذا أبي هريرة الصحابي والفقيه المعروف الذي كان حاكما شرقي الجزيرة العربية ، اذ كان جانب ثروته يتكون من تربية الخيل (جواثايين ص ١٣١) .

وقد خضع نشاط التجارة في ظل عهود الاسلام الاولي لنظام الحسبة في مراقبة الاسواق ومنع الغش والتلاعب بالاسعار ، وفي العصر العباسي فرض البويهيين والسلاجقة تنظيما للتجارة يكفل مكافحة الاحتكار للمواد الغذائية الاساسية وتوفير استيراد السلع الغذائية عن طريق الاستيراد (١٢٨) .

كما اهتم العديد من زراء البويهيين بتنشيط التبادل التجارى وتسهيل وسائل انتقال السلع عبر أجزاء الدولة ورفع كفاءة الموانئ في استقبال السفن .

كذلك كفل تنظيم الدولة الاسلامية للتجارة الخارجية ، الرقابة علي حركة التجارة عبر الحدود ، وفرضت المكوس بفئات أعلي علي الاجانب ، ومتوسطة علي غير المسلمين من المقيمين ، ومنخفضة علي التجار المسلمين .

(١٢٨) ومن الجهود البارزة في هذا الصدد ما اتخذته الوزير البويهى محمد بن صالحان عام ٣٧٢ هـ (راجع : الزبيدى ، العراق في العصر البويهى ، ص ١٥٧ ، أبوشجاع ، تجارب الامم ، ص ٣٧) .

المبحث الخامس

السياسة الاقتصادية والمالية وإدارة أموال المسلمين

" لكم علي أيها الناس أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسدد ثغوركهم ولكم علي ألا ألقىكم في المهالك " (ميثاق عمر)

١ - السياسة الاقتصادية والتنمية :

قبل التطرق الي دراسة أوضاع المالية العامة لدولة الاسلام الاولي وما اتبع من سياسة مالية لإدارة أموال المسلمين ، نبدأ بالإشارة الي السياسة الاقتصادية بوجه عام في العصور محل الدراسة وما انطوت عليه من تكريس الجهود للتنمية الاقتصادية بكل جوانبها ، وكذا تطور نظم الادارة والدواوين وما التزم به الخلفاء في الغالب من صفات أخلاقية وقيم اسلامية كانت لها أعمق الاثر علي تحقيق دولة الرفاهية في ظل الحكم الاسلامي .

وقد تجلت معالم السياسة الاقتصادية منذ عهد عمر بن الخطاب فيما أعلنه في ميثاقه عند توليه الخلافة :

" لكم علي أيها الناس أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسدد ثغوركهم ولكم علي ألا ألقىكم في المهالك " .

وهو بذلك يتعهد بالعمل علي زيادة الدخل والنهوض بمستوى معيشة المسلمين وتوفير الحد الأدنى للملائم من ضرورات الحياة والمحافظة علي أرواح رعيته من الهلاك وكفالة أسباب العيش للفقراء وأسر الجنود المقاتلين في غيابهم (١٢٩) .

(١٢٩) " وأني بعد شدتي تلك أضع خدي علي الارض لاهل العفاف وأهل الكفاف . واذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال " (ميثاق عمر) .

وقد اتضحت جهود التنمية الاقتصادية من خلال السياسة الاقتصادية في العصر العباسي مما ذكره الثعالبي في بيانه لواجبات الوزراء من أنه يجب علي الوزير : " السعي في عمارة البلاد ، واصلاح خللها ، وتثمير الاموال والمزروعات وتحصيل آلات العمارة ، والترغيب في ذلك ، فان بالعمارة تغزر الاموال ، وبالاموال تشمخ الممالك وتكثر الاعوان " (١٣٠) .

وهكذا تتمثل أركان السياسة الاقتصادية في العمل علي تنمية الثروة وترشيد استخدام الموارد والتوسع في الاستثمار في الزراعة وغيرها والتكوين الرأسمالي ممثلا في توفير الآلات ومستلزمات الانتاج ، وترغيب القطاع الخاص في زيادة الاستثمار المنتج ، حيث يعتمد علي كل ذلك النمو الاقتصادي وارتفاع الدخل وقوة بنيان الدولة .

وقد ذكر مسكويه كيف كانت دعائم السياسة الاقتصادية التي يضطلع بها وزراء بني العباس تقوم علي الاهتمام بعمارة البلاد وتنمية الاموال وتوفير معدات الانتاج اللازمة للزراعة ٠٠٠ الخ (١٣١) .

السياسة الاقتصادية للخلفاء في مواجهة الازمات الاقتصادية :

كانت أزمة " عام الرمادة " في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أبرز الامثلة علي تصدى الحاكم المسلم لما يحل بالمسلمين من ضوائق اقتصادية باجراءات نبعت من مبادئ الاسلام ، ففي عام المجاعة التي انتشرت في بلاد العرب لمدة تسعة شهور من أواخر العام السابع عشر الهجري هلك الحرث والضرع والزرع لانقطاع الامطار وتحركت الطبقات البركانية فاحرقت سطح الارض وثار الريح بتراب أسود وأقفر الاسواق من السلع .

(١٣٠) الثعالبي ، تحفة الوزراء ص ٦٩ .

(١٣١) كان للوزير البويهبي أبو الفضل بن العميد رسائل عن الطرق الصحيحة التي تتبع في عمارة البلاد واستغزار الاموال واصلاح الاراضي الزراعية (مسكويه المرجع السابق ، ص ٢٧٩) .

فسارع عمر بأخلاق وتدبير الحاكم الذي يعيش آلام رعيته بمواجهة الازمة بأن استورد علي الفور ما يلزم اغاثة الشعب من قوت ، اذ كتب الي عماله في العراق والشام يستنجدهم لغيث أهلهم في شبه الجزيرة العربية (١٣٢) .

وكان أن سارع الولاة في بقاع الدولة الاسلامية الي نجدة أهل الجزيرة ، وكان أسرعهم أبو عبيدة الجراح في الشام كما استجاب كل من عمرو بن العاص في فلسطين وسعد بن أبي وقاص في العراق (١٣٣) .

وقام عمر بتنظيم عملية الاغاثة من توزيع الغذاء والكساء علي أهل الامصار والبادية ، وتولي الامر بنفسه في المدينة المنورة جند رسله الي مختلف أرجاء شبه الجزيرة ينحرون الذبائح ويوزعون الدقيق والكساء .

وكان عمر يطعم أهل المدينة علي مائدته وكان عماله يسهرون علي طهو الطعام منذ السحر ، وكان يرسل الدقيق والتمر والادم الي منازل القادرين علي تهيتها لغذائهم شهرا بشهر ، يوزعه حصا تشبه نظام البطاقات المعروف في الوقت الحاضر .

وتعهد عمر المرضى من الناس وكان يدبر الاكفان للموتي ويصلي عليهم ، وأمر جنوده بعدم القتال أثناء المجاعة الا اذا أكرههم العدو علي الدفاع عن

(١٣٢) من ذلك ما كتبه لعمرو بن العاص في فلسطين : " سلام عليك ، أما بعد أفتراني هالكا ومن قبلي وتعيش أنت ومن قبلك ، فياغوثاه ، ياغوثاه " (هيكل ، د . محمد حسنين ، الفاروق عمر ، ج ١ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣ م ، ص ٢٨٩) .

(١٣٣) أرسل أبو عبيدة أربعة آلاف راحلة محملة بالطعام وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير .

أنفسهم ، كما منع جباته من تحصيل الزكاة أثناء عام الرمادة ، فلما انتعشت الأحوال الاقتصادية أمر الجباة أن يأخذوا من كل قادر حصتين وأن يوزعوا أحدهما علي المعوزين فوراً •

وبعد زوال الجذب دعا الاعراب الذين وفدوا للمدينة من البادية الي العودة لاراضيهم وكان يسير بينهم قائلاً : " اخرجوا اخرجوا الحقوا ببلادكم " ، وحض الناس علي اعانتهم علي ذلك بالقوت والدواب لنقلهم (١٣٤) •

ولا يحتاج الامر الي تعليق علي حكمة السياسة الاقتصادية والاجتماعية التي اتخذها الخليفة المسلم في مواجهة الازمة الاقتصادية بعد عرض هذا الحشد من الاجراءات والتدابير التي سهر بها الحاكم علي أحوال رعيته من محتتهم وهو دائم التضرع الي الله - طوال شهور المجاعة - بأن يفك الكرب عن أمته • وكان يقول : " لو لم أجد للناس مايسعهم الا أن أدخل علي أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتي يأتي الله بالحياء فعلت ، فانهم لن يهلكوا علي أنصاف

٢ - الحاكم القدوة والادارة المتطورة :

وكان من ركائز نجاح الاقتصاد الاسلامي والسياسة الاقتصادية والمالية في دولة الاسلام الاولى عدالة الحكام ونزاهتهم وزهدهم في أموال المسلمين ، وهنا يبرز أيضاً الخليفة عمر بن الخطاب خير مثل علي أمانة وعدالة الحاكم المسلم •

فقد كان عمر مثالا للعدل والتسوية في المعاملة بين الناس يتصف بالعفة والامانة ، وكان يصر علي أن يأكل مما يتناوله أقل رعيته ، بل كان يقتر علي نفسه فيما يناله من عطاء بيت المال حتي كان يحتاج فيقترض من أمين بيت المال •

وكان يتحاشي أن ينتفع أحد من أهل بيته بشيء لا حق له فيه (١٣٥) ،
وحسبنا المواقف الاتية من حياة وخلق الخليفة المسلم :

ففي زهد عمر في أموال المسلمين ، ورد عن الاحنف أنه حين سئل عمر عما
يحل له من مال الله ، أجاب :

" حلتان حلة في الشتاء وحلة في القيظ ، وما أحج به وأعتمر في الظهر ،
وقوت أهلي كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم ، ثم أنا بعد رجل
من المسلمين ، يصيبني ما أصابهم " (١٣٦) .

وفي حزم الحاكم مع عمالة لضمان نزاهتهم ، عن عمارة بن خرزة بن ثابت ،
قال : " كان عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، اذا استعمل عاملا كتب عليه
كتاب وأشهد عليه رهطا من الانصار ، أن لا يركب بردونا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يلبس
رقيقا ، ولا يغلق بابه دون حاجة المسلمين ، ثم يقول ، اللهم اشهد " (١٣٧) .

وقد توخي الرأفة والحلم في معاملة الرعية ، كان عمر يكتب الي أمراء
الانصار : أن لكم معشر الولا حقا علي الرعية ولهم مثل ذلك ، فانه ليس من
حلم أحب الي الله ولا أعم نفعا من حلم امام ورفقه ، وأنه ليس جهل أبغض الي
الله ولا أعم ضرا من جهل امام وخرقه ، وأنه من يطلب العافية فيمن هو بين ظهرائه
ينزل الله عليه العافية من فوقه " (١٣٨) .

(١٣٥) وكان اذا صعد المنبر فنهى عن شيء جمع أهله فقال : " اني نهيت الناس
عن كذا ، وأن الناس ينظرون اليكم نظر الطير الي اللحم ، وأقسم بالله
لا أجد أحدا منكم فعله الا أضعفت عليه العقوبة (محمد الخضري ، المرجع
السابق ، ص ١٥ ، ١٦) .

(١٣٦) ابن الجوزي ، المرجع السابق ص ١٠٢ .
(١٣٧) السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٢٨ ، وعن الشعبي قال : كان عمر
اذا بعث عاملا كتب ماليه (ابن الجوزي ص ١٢٠) .

(١٣٨) ابن الجوزي ص ١١٥ .

وفي تقبل الحاكم لنقد الرعية وعدم استبداده براهيه ، قال سفيان عيينه
قال عمر بن الخطاب : " أحب الناس الي من رفع الي عيوبي " (١٣٩) .

أما عن تطور امكانات الادارة وارتقاء أساليبها في ظل دولة الاسلام الاولى
فقد أنشئت الدواوين المختلفة (١٤٠) يختص كل منها بقطاع من قطاعات الدولة منها
ديوان النفقات لشؤون دار الخلافة ، وديوان بيت المال ويتولي أمر الإيرادات العامة
والنفقات العامة ، وديوان البريد لشؤون جمع الاخبار والمعلومات عن سائر الامصار
وعرضها علي الخليفة ، وديوان التوقيع لتلقي ونظر المظالم والشكاوى وعرضها
علي الخليفة ، وديوان البر والصدقات ، وديوان الشرطة .

كما استخدمت في الدواوين المختلفة بالقرن الرابع الهجري مختلف أنواع
ال سجلات والقيودات كدفاتر قانون الخراج والروزنامج (اليومية) والختمة (شهرية)
والختمة الجامعة (سنوية) ٠٠٠٠ الخ (١٤١) .

وقد اعتمد البعض من الدواوين المشار اليها - الخراج - في البداية علي
لغات موظفيها الاول - الفارسية واليونانية ، ولكن سرعان ما تحولت لغات الدواوين
الي العربية بعد تطور العرب وتدريبهم علي الكتابة الحساب وهو ما تقرر في عهد
عبدالملك بن مروان (١٤٢) أما دواوين الجند والشرطة القاضي فقد استخدمت
العربية منذ البداية وطبقت القواعد الاسلامية (١٤٣) .

(١٣٩) السيوطي ، المرجع السابق ، ص ١٢٩ .

(١٤٠) تعبر كلمة الديوان عن مجموعة القوانين أو النظم التي تتبعها الدولة في
شان من شؤونها ، كما تشمل الجماعات المنوط بها تنفيذ هذه القوانين
وكان عمر بن الخطاب هو أول من أسس ديوان الاموال في الاسلام .

(١٤١) الخوارمي ، مفاتيح العلوم ص ٥٤-٥٦ ، راجع آدم متر ، المرجع السابق
الفصل السادس .

(١٤٢) ابن عبدربه ، العقد الفريد ج ٤ ، ص ٣٩٩ .

(١٤٣) د. أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ١٩٢٩ .

لامركزية الادارة والحوافز :

وقد استخدمت الادارة الاسلامية نظامين يعدان اليوم من أعمدة التقدم في أساليب الادارة ، وهما لامركزية الادارة والحوافز .

ففي لامركزية الادارة ، كان حكم الولايات يجرى من خلال منصبين رئيسيين يكفلان نوعا من الرقابة المزدوجة (والمتبادلة) : منصب الامير وهو قائد الجيش ومنصب العامل أو صاحب الخراج الذى يتولى أساسا جباية خراج الولاية وأداءه الي خزانة الدولة ، وكانت النفقات المحلية في كل ولاية من واقع إيرادات خراجها (١٤٤) فلم تكن خزانة الدولة العامة مسؤولة الا عن نفقات دار الخلافة والدواوين المركزية وما يتعلق بنفقات بغداد عاصمة الخلافة (١٤٥) .

وكان ازدواج الرئاسة وتقاسم المسؤولية في الولاية بين الامير وصاحب الخراج - علي الوجه المذكور - مما يكفل عدم تسلط أحدهما واستثنائه بحكم الولاية .

كذلك استخدم نظام الحوافز في ادارة الدولة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى حيث كان خزان بيت المال يحصلون علي أرزاقهم مما يوفره من أموال الساقطين وغرم المخلفين بدواهم ، فكانت مرتبات هؤلاء تتوقف علي مقدار يقطنهم وعنايتهم في تحرى وملاحقة المنهريين والمخالفين (١٤٦) .

-
- (١٤٤) آدم متر ، المرجع السابق ، ص ١٥٦ ، ويشير الي كتاب الوزراء ص ١١ .
(١٤٥) فكان مايتبقى من حصيلة الخراج بعد نفقات الولاية من الرواتب وأعطيات الجند يذهب الي بيت المال العام (مسكويه ، المرجع السابق ، جزء ٥ ص ١٩٣) .
(١٤٦) آدم متر ، المرجع السابق ، ص ١٥٥ .

نظام الحسبة ورقابة الدولة لحماية المستهلك :

ولن يكتمل الحديث عن ادارة النظام الاقتصادي الاسلامي لصالح جماعة المسلمين ، بغير اشارة الي نظام الحسبة في الاسلام ، فبرغم مبدأ الحرية الاقتصادية السالف الاشارة اليه وبرغم اعتماد النظام الاسلامي علي مراقبة الفرد لنفسه من واقع وازعه الديني ، فان النظام الاقتصادي في الاسلام قد تضمن تدخل الدولة لحماية الضعيف ونصرة المظلوم ، وذلك فيما عرف بنظام الحسبة .

وقد نشأ منصب أو اختصاص المحتسب لأول مرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يطوف في الشوارع والاسواق ويتعرض بنفسه لمن تسول له نفسه غش الجمهور ، أما تنظيم أعمال الحسبة فقد نشأ في العهد العباسي (١٤٧) ، وقد تضمن اختصاص المحتسب مراقبة التجار وأرباب الحرف لمكافحة الغش في تجارتهم أو صناعتهم أو معاييرهم وله أيضا أن يتدخل في تسعير بضائعهم .

٣ - المالية العامة للدولة الاسلامية الاولى :

عندما تكاثرت الاموال الواردة من الخارج في عهد الفتوحات الاسلامية وأصبح من اللازم تنظيم حصرها وتقسيمها ، أشار خالد بن الوليد علي الخليفة عمر بانشاء ديوان للاموال وقال " رأيت ملوك الشام يدنون " (١٤٨) ، وأنشأ عمر الديوان وكان له فروع بالعراق والشام ومصر ، واستعان في ادارة هذه الدواوين بموظفين من الموالي العجم وأهل الكتاب من ذوى الخبرة في البلاد التي فتحها المسلمون .

(١٤٦) آدم متز ، المرجع السابق ص ١٥٥ .

(١٤٧) من الكتاب من يرجعه لعهد الرشيد ومنهم من يرجعه لعهد المهدي ، راجع

في ذلك : العجلاني ، د . منير ، عبقرية الاسلام في أصول الحكم ، ١٩٦٥ دار

الكتاب الجديد ، ص ٢٣٥ .

(١٤٨) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ١٦ ، ٣٨ .

واشتمل نشاط بيت المال علي النظر في كل مايتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة وأعشار وأخماس وجزية وغير ذلك ، وسمي بـ " الديوان السامي " ويعتبر أصل الدواوين ومرجعها .

وهكذا نشأت أول وزارة مالية في الدولة الاسلامية ، تولت القصد في المصروفات والعناية والامانه في الجباية ، مما تحسنت به الحالة المالية للدولة الاسلامية بغير أن تدعو الحاجة الي ارهاق الناس بالضرائب أو الخروج عن سنن الموارد الشرعية الاسلامية (١٤٩) .

وفي العصر العباسي تطورت أساليب ادارة مالية الدولة فقسم ديوان المال الي أربعة دواوين : نفقات الجند والجباية والوظائف ومراقبة الدخل والخرج .

وقدرت الحصيلة الاجمالية للضرائب المستحقة علي كل ولاية بحيث تكون الايرادات العامة معلومة مقدما ، ونظمت الجزية المفروضة علي المسلمين من سكان البلاد بحيث يختلف مقدارها باختلاف الثروات والقدرات المالية للممولين ، كما نظمت الضريبة العقارية مابين خراج علي الارض يلتزم به غير المسلمين وعشور يلتزم بها التجار المسلمون (١٥٠) .

هذا بالاضافة الي المكوس والصدقات وما يتولد من دخل علي ايجار الاراضي البور وميراث الدولة لمن لا وارث له .

(١٤٩) د . أحمد شلبي ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، المرجع السابق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(١٥٠) راجع في بيان ذلك : د . الخضري ، المرجع السابق ، ص ٩٠-٩٣ ، حيث أشار المؤلف الي تقسيم الخلفاء لموارد الدولة الي ايرادات ثابتة وايرادات غير ثابتة ، وان أمر الجباية كان يوكل منذ عهد عمر الي عمال مستقلين .

وساعد انتظام إيرادات الدولة هكذا علي قيام المشروعات المختلفة ،
فانشأ المهدي الفنادق والابار وشق طريقا بين بغداد ومكة لتيسير رحلات الحج ، كما
خصصت كثير من الاوقاف للانفاق علي المساجد والمدارس ، وعززت ادارة الشرطة
لحماية الامن (١٥١) .

وكانت مسؤولة تحصيل الضريبة مسؤولة محددة في حدود المستحق ،
يخضع في مباشرتها عمال الجباية للرقابة والمحاسبة ، كما كانت أوجه الانفاق أيضا
تخضع لمعايير الصالح العام ، وهي قواعد حددها ميثاق الخليفة عمر :

" لكم علي ألا أجتبي شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم الا من وجهة
ولكم علي اذا دفع في يدي ألا يخرج مني الا في حقه .. " .

وقد كتب عمر الي عمال الخراج : " أما بعد ، فان الله خلق الخلق بالحق
فلا يقبل الا الحق ، خذوا الحق ، واعطوا الحق به ، والامانة الامانة قوموا عليها ،
ولا تكونوا أول من يسلبها ... والوفاء الوفاء لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فان الله
خصم لمن يظلمهم " (١٥٢) .

كما أخرج ابن سعد عن ابن عمر أن عمر أمر عماله وكتبوا أموالهم ، منهم
سعد بن أبي وقاص ، فشاطرهم عمر في أموالهم ، فأخذ نصف وأعطاهم نصفاً
(١٥٣) ، وفي مصر أسس حاكمها الاخشيذ نظام مصادرة العمال وفرض الاموال عليهم
وطبق ذلك بقوة (١٥٤) .

(١٥١) أ . سيديو ، المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩٣ .

(١٥٢) الخضري ، المرجع السابق ص ١٦ .

(١٥٣) السيوطي ، المرجع السابق ص ١٤١ .

(١٥٤) متر ، المرجع السابق ص ١٦٤ .

واشتهرت قولة عثمان بن عفان في تذكرة وتوجيه عماله للرافة بالمسلمين في جمع الاموال : " الله أمر الائمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم في أن يكونوا جباة ، الا وأن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم " (١٥٥) .

وقد تضمن تنظيم المسلمين لمالية الدولة في العصر العباسي الاخذ بأسلوب اللامركزية فأخذ بذلك الوزير نظام الملك الطوسي في العهد السلجوقي ، وذلك في صدد تحصيل خراج الارض الزراعية ، حيث كان ذلك بهدف التشجيع علي استصلاحها (١٥٦) .

أما عن ضوابط انفاق مال المسلمين ، فبالاضافة الي ما أشرنا اليه في ميثاق عمر عند توليه الخلافة ، روى عن مالك بن أوس " كان عمر رضوان الله عليه يحلف علي أيمان ثلاث ، يقول : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق له من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد الا وله في هذا المال نصيب - الا عبدا مملوكا - وكلنا علي منازلنا من كتاب الله تعالى ... فالرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعي في مكانه " (١٥٧) .

وهكذا تتقرر المبادئ العامة لاتجاهات الانفاق العام فيما ينتفع به الكافة علي وجه سواء كل بقدر عمله وكل بقدر حاجته ، وحق القاضي مكفول قبل الداني .

(١٥٥) فوزع النواحي في شكل اقطاعات علي رؤساء الجند ، بحيث يتعهد كل منهم بسداد مبلغ من المال لخزينة الدولة مقابل استثماره للاراضي التي أقطعت له (السبكي ، المرجع السابق . ص ٣١٧) .

(١٥٧) ابن سعد ، الطبقات ج ٣ ، ص ٢٩٩ .

واذ لم تكن أبواب الانفاق العام وبنوده قد تحددت آنئذ بما يجرى عليه الان تقسيم وتبويب الميزانيات العامة ، فان الامر كان يرجع لما تحدده قواعد الشريعة ، مع حرص ويقظة الضمير لدى الحاكم علي وضع كل درهم في موضعه من سد حاجات المسلمين ، يعبر عن ذلك فرط حرص الخليفة عمر وقلقه علي سوء وليته - في هذا الصدد بقوله ا " فيما يؤمن عمر لو هلك ، وذلك المال عنده لم يضعه في حقه " (١٥٨) وبرغم هذا المدى من النزاهة ويقظة الضمير لدى الخليفة المسلم فقد تميز تقرير سياسة الانفاق العام في هذا العهد بمبدأ الشورى وديمقراطية القرار وفي الواقعة الاتية مثال عظيم :

عندما اجتمع عند عمر رصيد ضخم من أموال المسلمين بلغ ثمانمائة ألف درهم مما جباه أبو موسى الاشعري ، اجتمع عمر الي نفر من أصحاب رسول الله (ص) فقال لهم : " انه قد جاء الليلة مالم يأتهم منذ كان الاسلام ، وقد رأيت رأيا فاشيروا علي أن أكيل للناس بالمكيال " فقالوا : " لاتفعل يا أمير المؤمنين ان الناس يدخلون في الاسلام ويكثر المال ، ولكن أعطهم علي كتاب ، فكلما كثر الاسلام وكثر المال أعطيتهم " قال : " فاشيروا علي بمن أبدأ منهم ٠٠٠٠ " الي أن وضع عمر الديوان وبدأ برسول الله (ص) ثم الاقرب اليه فالاقرب ٠٠ (١٥٩)

(١٥٨) ابن الجوزي (عن أبي هريرة) ، المرجع السابق ص ١٠١ .

(١٥٩) ابن الجوزي ، المرجع السابق ص ١٠١ .

ولنقارن تلك المبادئ بما يجرى عليه انفاق الكثير من الاموال العامة الان - وفي دول اسلامية - في مظاهر أقرب للترف والبذخ والتفاخر المظهري منها الي سد حاجات المسلمين الاساسية ، بل ان من الاموال ما ينفق بسخاء علي الدعاية لنظام الحاكم وتأييده ضد خصومه أو لتعزيز قوة أعوانه ، هذا فضلا عما يوجد منها لمؤسسات اعلام أو ترفيه تقدم اللهو أو المتعة بما لا يتفق الكثير منه مع تعاليم الاسلام وقيمه .

المبحث السادس

التأثير الحضارى للاقتصاد الاسلامي علي أوروبا والعالم

" كنتم خير أمة أخرجت للناس " (آل عمران ١١٠)

ان حضارة الغرب المعاصرة ليست منبعثة الصلة والتأثير بما سبق من حضارات غذتها بالوان من المعرفة وأمدتها بجوانب من تراثها ، فكما يقرر بعض المفكرين (١٦٠) " كل أمة انما هي تطور من حضارات الامم التي سبقتها في موضعها من العالم علي الاكثر وفي غير موضعها علي الاقل " واننا ندرس كل حضارة بالاضافة الي الزمن الذي كانت فيه ، ومن هذا المنظور ينبغي أن نقيم التأثير الحضارى للاسلام وانجازات نظامه الاقتصادي علي عالم اليوم ، وينبغي أن نتأمل في تأمل تاريخ الاسلام " ان تاريخ أى أمة ، انما هو تاريخ حضارتها ، كما أن عظمة الامة هي في طول الفترة التي حملت خلالها مشعل الحضارة وعمق الاثر الذي خلفته حضارتها في حياتنا " (١٦١) .

وعندما نريد أن نتابع أثر الاقتصاد الاسلامي علي تقدم أوروبا اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا ، فاننا نرجع الي تاريخ بدء اتصال الاسلام بالغرب منذ رسائل الرسول (ص) الي قيصر ثم حروب أبي بكر وما تلا ذلك من فتح الاندلس وصقلية ، وكذا احتكاك المسلمين بالغرب من خلال الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين من الزمان ، حيث كانت فترات الهدنة التي تخللت الحروب المذكورة تتيح تعاملًا مباشرًا بين المسلمين وشعوب أوروبا .

(١٦٠) عمر فروخ ، العرب في حضارتهم وثقافتهم ، المرجع السابق ص ٤ ، ه
ويضيف الكاتب : واننا نجانب الانصاف اذا حكمنا علي الحضارة الجاهلية بما وصل اليه اليونان في الفلسفة في أيامهم ، فللجاهليين وللأماويين مثلا أوجها مادية من الحضارة لاتقتصر عما عندنا أو عند بعضنا اليوم .

(١٦١) المرجع أعلاه ص ٥ .

ويؤكد المؤرخون أن حضارة الاسلام التي تكونت خلال الفترة المشار اليها كانت من التميز في مجالات الانتاج والمعرفة والمخترعات والفنون علي وجه بهر الاوربيين وفاجأهم ، ووصف البعض التفوق الحضارى للمسلمين في تلك الاونة بالقول بأن : " جميع ذلك تأثرت به أوروبا بحيث يمكن القول بأن العرب كانوا أساتذة الاوربيين في جميع فروع المعرفة ، ٠٠٠ مما يعد حقيقة ناصعة لامر من الاعتراف بها " ومما يجب أن يرفع في أعيننا الامة العربية التي ازديناها زمنا طويلا (١٦٢) .

فمن قرطبة بأسبانيا العربية ، انطلقت أشعة المدنية الاسلامية في فترة كانت عواصم أوروبا خلالها لاتزال تزوج تحت وطأة البدائية والقدارة ، فهيأ لها الحكم الاسلامي مكانة جعلتها الدولة الوحيدة في أوروبا التي تحررت من عصور الظلام "١٦٣

وكانت أبرز جوانب التأثير لحضارة الاسلام علي أوروبا واقتصادها : هي الاثر علي التقدم الفني في الانتاج بقطاعاته المختلفة ، والتأثير في مجالات الثقافة والعلوم والاداب ، ثم في توعية شعوب أوروبا للتخلص من الاقطاع والاقتصاد العبودي .

تأثير الحضارة الاسلامية علي التقدم الفني للانتاج في أوروبا :

فكان تأثير المسلمين علي الانتاج الزراعي في الاندلس واضحا بحكم مهارة المسلمين القادمين من الشام وشمال أفريقيا وخبرتهم بشؤون الزراعة ، فاختاروا من المزروعات والحاصلات ما يلائم التربة والمناخ في أسبانيا (١٦٤) وحسنوا الري والصرف أدخلوا نظام زراعة المدرجات الزراعية علي الجبال وأقاموا السدود لتوفير

(١٦٢) سيديو ، تاريخ العرب العام ، المرجع السابق ص ٢٠٦ ، ص ٤٢٥ . انظر كذلك Hearshow علم التاريخ ، الترجمة العربية ص ٦٢ ، د. أحمد

شليبي ، الفكر الاسلامي ص ٤٧ .

Coke, Richard, The City of Peace, p. 61.

(١٦٣)

(١٦٤) فأدخلوا بعض الحاصلات التي لم تعرفها الزراعة في أوروبا من قبل ، مثل الحنطة والكتان والقطن والقنب والموالح وقصب السكر .

مياه الري مما ساعد علي اتساع رقعة الاراضي المنزرعة ، كما استحدثوا اساليب زراعية قائمة علي الترصّد والتجربة وأحيوا موات الارض (١٦٥) .

وفي الصناعة أدخل المسلمون الي أسبانيا صناعات المنسوجات الحريرية والجوخ والورق والفرش الجلدية والنعال والزيت ، كما نشطت في صقلية صناعة المسلمين حيث أنشأوا مصانع للملابس الفاخرة ومنتجات الجلود والورق ، مما انتقل فيما بعد الي ايطاليا ، كذلك نشطت استخراج المعادن من مناجم صقلية بفضل المسلمين فاستخرجوا الذهب والفضة والحديد والرصاص (١٦٦) .

كذلك انتعش النشاط التجارى بأسبانيا مع دخول المسلمين بما لديهم من مواهب تجارية ، كما نشط أسطول العرب التجارى في حمل تجارة أسبانيا من صادرات وواردات .

وأصبح المسلمون سادة البحر الابيض المتوسط في القرن السابع الميلادى وما بعده ، وعلي أيديهم تعلم الايطاليون والفرنسيين المصطلحات التجارية المختلفة .

وفي فنون البناء وهندسة المعمار كان تأثير الحضارة الاسلامية في أسبانيا مبهرا حتي وصف البعض نشاط المسلمين في تعمير مدنها الخالية بأنهم " زينوا جيدها بأفخم المباني " (١٦٧) كما نقل عن ابن خلدون وصفه : فاننا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة ... وحسن الترتيب في البناء والانبة " (١٦٨) .

(١٦٥) ولا تزال في اللغة الاسبانية بعض المصطلحات الزراعية العربية كالساقية والناعورة ومن أسماء النباتات القطن والارز والرمان والمشمش (سيديو ، المرجع السابق ص ١٦٥ ، أنور رفاعي ص ٢٨٠ وما بعدها) .

(١٦٦) أحمد مصباح . المرجع السابق ص ٢١٠ .

(١٦٧) سيديو ص ١٦٥ .

(١٦٨) الرفاعي ص ٣٠٥ .

أثر الاسلام علي أوروبا في مجالات الثقافة والعلوم الاداب :

عندما بلغت حضارة الاسلام أوروبا بددت ظلام الجهل السائد بانتشار علوم المسلمين وآدابهم وفلسفتهم ، حيث أصبحت بغداد والبصرة والقاهرة ودمشق مصادر اشعاع حضارى ومراكز للعلوم والمعارف في الوقت الذي كانت به عواصم أوروبا أشبه بالقرى الخالية من كل ما يشد الناس اليها من ألوان المعرفة .

وكانت بلاد المسلمين تغص بالعلماء والمكتبات الكبيرة ، وانطلقت علوم العرب من البلاد الاسلامية الي أوروبا عن طريق جزيرة صقلية والاندلس وايطاليا والشام .

وفي أسبانيا علي وجه الخصوص ازدهرت ثقافة المسلمين وأقاموا المكتبات العامة والجامعات والمدارس وأنشئت في طليطلة سنة ١١٣٠ م مدرسة للترجمة ترجمت الكثير من الكتب العربية الي اللاتينية ، كما نقلت المؤلفات اليونانية - التي كانت أصول بعضها قد اندثرت - الي العربية ، وأصبحت المراجع العربية في الفلك والعلوم الطبيعية والرياضيات مصدر المعرفة للأوروبيين .

وفي صقلية أنشئت في عهد المسلمين أول مدرسة للطب كانت الاولي من نوعها في أوروبا ومنها انتشر تعليم الطب الي ايطاليا ثم فرنسا وسائر أوروبا ، كذلك تقدمت في ظل الحكم الاسلامي فنون العمارة وهندسة البناء في صقلية كما انتشرت أسماء الموازين والمكاييل (١٦٩) .

وبوجه عام فان تأثير ثقافة المسلمين والفكر الاسلامي علي حضارات العالم المختلفة أمر لا يمكن انكاره ، حيث تدين الحضارات المعاصرة بالفضل لحضارة الاسلام . كتأثير الشريعة الاسلامية علي الهند الوثنية بعد الفتح الاسلامي والدعوة

الي التوحيد وتأكيد مبدأ المساواة ، مما تميزت به الشريعة الاسلامية ، وأقرب به
المفكرون الغربيون في أوروبا والشرقيون في آسيا (١٧٠) .

الاسلام وتوعية شعوب أوروبا للتخلص من الاقتصاد العبودي والاقطاع :

تضمن الاسلام نظام اجتماعي واقتصادي أعفي الشرق الاسلامي من الاقطاع
- الذي مرت به أوروبا في القرون الوسطي - بمعناه الاصطلاحي والتاريخي .

وابان الحروب الصليبية قدم الصليبيون الغربيون الي الشرق يحملون معهم
نظمهم ومفاهيمهم ، فأسسوا دولة في سورية تقوم علي العلاقات الاقطاعية حيث
الاراضي الزراعية بعضها في أيدي جماعات الدوية والاستبارية والبعض الاخر في
أيدي الزراع ، ولكن سرعان ما تأثر المسيحيون الذين لامسوا المجتمع الاسلامي
الشرقي بحضارة الاسلام التي ترفض الاقطاع وما يتضمنه من عبودية ، وحدث ذلك
التحول أثناء القرن الثاني عشر الميلادي الذي كانت فيه سوريا مركزا للعلاقات بين
المسيحية والاسلام في شرق بحر الروم (١٧١) .

فقد تشرب الاوربيون خلال الفترة المشار اليها روح التحرر من الاقتصاد
العبودي الذي ساد أوروبا في عهود الاقطاع ، بعد أن شاهدوا في فلسطين كيف
تقوم علاقات الانتاج والعمل في الاسلام علي احترام كرامة الفرد وليس علي الاسترقاق
والعبودية ، الامر الذي خلف لدى الاوربيون وعيا بدأت معه مقاومة ورفض النظام
الاقتصادي الاقطاعي السائد في أوروبا ، بما أسفر عنه ذلك من شيوع مبدأ المساواة
والتقارب بين الطبقات .

(١٧٠) السمان ، محمد عبدالله ، الفكر الحضاري لدى فقهاء المسلمين ، ندوة
الشباب الاسلامي ، الاسلام والحضارة ، ١٩٧٩م المجلد الاول ص ٤٣٤ .

(١٧١) عثمان ، محمد فتحي أعضاء علي التاريخ الاسلامي ، مطبعة الجهاد ، القاهرة
ص ١٠٦ (ويشير المرجع الي : باركر أ . تراث الاسلام ج ١ فصل الحروب
الصليبية - ترجمة أحمد عيسي) .

وكان ذلك التأثير من جانب المجتمع الاوربي بمبادئ الاقتصاد الاسلامي بصورة غير مباشرة ، من عوامل تقويض النظام القطاعي في أوروبا ، وكان ذلك سبيلا لتحرير عبء الارض من الالتزامات القاسية التي كانوا ينوءون بها لصالح سادة القطاع (١٧٢) .

قيم الاقتصاد الاسلامي والنظم الاقتصادية للحضارات المعاصرة :

ان حضارة الاسلام التي انبثق عنها نظامها الاقتصادي خلال فترة القرون الوسطي لتتضمن من المبادئ والقيم ماتزهو ببعضه النظم الاقتصادية المعاصرة ، فمبادئ الملكية الفردية والحرية الاقتصادية كما دعا لها أنصار النظام الرأسمالي من الاقتصاديين والتقليدين هي أصلا من دعائم النظام الاقتصادي الاسلامي ، لولا أن الاخير يفضل الرأسمالية الغربية في رفضه للاحتكار وتركيم رأس المال في أيدي قلة علي سبيل الاكتناز ، كما يعارض الاسراف في الاستهلاك واساءة استخدام حق الملكية فيما يضر بالصالح العام .

كذلك فان ربط الاقتصاد في النظام الاشتراكي بمصلحة المجتمع التي تعلقو مصلحة الفرد ، قد سبق اليه النظام الاقتصادي الاسلامي قبل مذاهب الاشتراكية - في القرن التاسع عشر - بقرون عديدة .

(١٧٢) أحمد شلبي ، النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامي فيها ، المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ .

وهذا ما يرى معه البعض (١٧٣) أن الاشتراكية الأوروبية في مفاهيمها السائدة إنما ترجع " إلى مزيج من الفكر الإسلامي والبيئة الأوروبية " حيث استوحي المفكرون الاشتراكيون - علي الأرجح - ما انسب إلي أوروبا من اتجاهات اقتصادية إسلامية عن طريق الأندلس وصقلية وفلسطين (١٧٤) .

وهذا السبق والتفوق في حضارة الإسلام ونظامه الاقتصادي الذي حقق من الانجازات ما عرضنا لبعضه في الصفحات السابقة هو ما يدفع ببعض المؤرخين المحدثين (١٧٥) للدعوة إلي تكريس الجهود لاجل أن تواصل الحضارة الإسلامية حياتها وتجدها في صورة معاصرة تشارك في التقدم التكنولوجي العالمي .

(١٧٣) د. أحمد شلبي ، النظم الاقتصادية عبر العصور ، المرجع السابق .
ص ١٢٤ .

(١٧٤) هذا فضلا عما اقتبسه المستشرقون ورجال الكنيسة من مبادئ الاقتصاد الإسلامي عندما اتجهوا لدراسة الفكر الإسلامي . فوجد " من مفكرى الغرب من يحملون اتجاهات العدالة الاجتماعية التي وضع الإسلام لها قانونا دقيقا " ، وكانت بذلك " تحركات الاشتراكية صدى للإسلام بطريق أو بآخر " (المرجع أعلاه ص ١٢٥) .

(١٧٥) عثمان ، محمد فتحي ، القيم الحضارية في رسالة الإسلام ، ندوة الشباب الإسلامي : الإسلام والحضارة مارس ١٩٧٩ م ، المجلد ١ ص ١٠٢ .

"خاتمة"

في مضمار التطور التاريخي للحضارات التي عرفها العالم ، يتبوأ العامل الاقتصادي أهمية خاصة لما يحدده من كيفية سلوك الانسان في تعامله مع الطبيعة وكفاحه من أجل العيش ومسعا لتحقيق رفاهيته المادية والمعنوية ، وهي أهمية ليست بضرورة علي الوجه الذي يزعمه المذهب المادي في فلسفته الحتمية التاريخية .

ويتصدى البحث لبيان السمات الحضارية البكرة التي تضمنها واقع الاقتصاد الاسلامي في فترة القرون الوسطى التاريخية بالمقارنة علي عوامل النهضة الاقتصادية التي ظهرت بعد ذلك في أوروبا .

ويعرض الباحث في ذلك للقيم الاسلامية التي استظل بها الاقتصاد الاسلامي في أوج ازدهار الحضارة الاسلامية ، مما مثل ثورة اجتماعية اقتصادية مبكرة ، فيما تضمنه الاسلام من حضارة ذات معطيات ثابتة حول محور واضح ، يتحدد وفقا له اطار الغايات والوسائل في حياة الانسان ، حيث الغاية الثابتة هي تحقيق الانسان لخلافة الله في الارض ، والوسائل المرنة هي أنشطة الانسان لاشباع حاجاته كما تمثلت ثورة الاسلام في فصل قيمة الاقتصاد عن قيمة الانسان ، حيث يكون الاول في خدمة الاخير وليس العكس ، وكذا في تعزيز الاسلام لقيمة الفرد وتكريمه علي سائر مخلوقاته مع مساءلته لصالح الدين والمجتمع ، مساءلة تحكمها القيم الاسلامية وفي مقدمتها تحرم أدوات طغيان الانسان وظلمه لغيره كالربا والاحتكار والرشوة الخ .

كما عرض الباحث لادوات التحول الاجتماعي والثقافي التي تحققت بها ثورة الاسلام الحضارية ، فانطلق بها الاقتصاد الاسلامي في تجربته المزدهرة بفضل العدالة الاجتماعية ونظام الزكاة وضمان حق الفقير في عيش كريم ، وبفضل اطلاق الفكر الانساني فيما كرم به الاسلام العلم والعلماء وما دعم به الخلفاء المسلمون الحركة العلمية في زمن أهملت فيه أوروبا ذلك .

وتوقف الباحث عند محتوى التطور الكبير في الاقتصاد الاسلامي ، من تحولات جذرية في علاقات الانتاج والقوى المنتجة ، حيث عرض لظواهر كانت لها اهميتها المحورية في التطور المذكور ، كبروز دور الفئات المنتجة في شكل طبقة متوسطة تشبه فئة المنظمين في نهضة الاقتصاد الاوربي ، ويشبهها البعض بطبقة البرجوازية حيث لعبت الطبقة المذكورة في الاقتصاد الاسلامي كفترة القرون الوسطى دورا خطرا في توجيه الحياة الثقافية والفكرية ، بل احتلت موقفا مؤثرا في الحياة السياسية ، فضلا عما اضطلعت به من نشاط كبير بروح المبادرة الخلاقة في التجارة والانتاج .

وأبرز الباحث أهم الفعاليات التي عكسها وجود الطبقة المتوسطة - المشار اليها - علي النشاط الاقتصادي في الدولة الاسلامية ، من شيوع جو الحرية الاقتصادية وربط النشاط الاقتصادي بالقيم الدينية التي تبدأ بتقوى الله وطلب المثوبة في الآخرة وتحرير الاقتصاد من الزعة المتصوفة التي تدعو لنبذ النشاط الدنيوي ، فضلا عن اشاعة مبدأ التخصص وتقسيم العمل في الانتاج .

كما أوضح الباحث ماتضمنه التحول الجذري لعلاقات الانتاج من كفالة الاقتصاد الاسلامي لمبدأ تكافؤ الفرص ، في الانتفاع بوسائل الانتاج الرئيسية ، وخاصة الارض الزراعية ، حيث تمثل هذا الاتجاه في مقاومة الخلفاء المسلمين للاقطاع الزراعي عندما لاح للمقاتلين المسلمين السعي للاستحواذ علي مساحات كبيرة من الارض التي غطتها الفتوحات الاسلامية ، مما كان يندرز بقيام ارسنقراطية عسكرية علي حساب حق الكافة من المسلمين .

ومن خلال عرض لتطور الانشطة الانتاجية الرئيسية في ظل الاقتصاد الاسلامي ، تناول الباحث توسع نشاط كل من الزراعة والصناعة ونمو امكانياتها وتطور أساليبها الانتاجية ووسائلها وتنويع منتجاتها ، فضلا عن تطور علاقات الانتاج في اتجاه الحد من سيطرة الفئات المالكة علي الفئات العاملة .

كما عرض للتقدم العلمي الذي حققه المسلمون ، فانعكس علي التقدم الفني في الصناعة والملاحة ، وكذا تقدم التنظيم الصناعي ، مما كفل الحرية الاقتصادية وتطبيق مبدأ تقسيم العمل ، وأسفر كل ذلك عن ارتفاع كبير في مستوى الكفاءة الانتاجية ، كما توطنت الصناعات في مناطق تحققت في اطارها وفورات الانتاج الكبير ، وجرى تناقل الصناعات عبر دول البحر المتوسط بفضل انتشار الاسلام ونمو التبادل التجارى . كما جرى تبادل المواد الخام والخبرات الفنية اللازمة للصناعة .

كما عرض البحث لنمو وانتعاش التجارة وتقدم نشاط النقل البحرى والبرى بين البلاد الاسلامية وغيرها من دول العالم ، حيث تنوعت السلع المتبادلة ، وتمتعت العملات الاسلامية بالقبول في سائر الدول وأرسي المسلمون قواعد في الملاحة البحرية شاعت في أوروبا فيما بعد .

وتناول البحث دور كل من السياسة الاقتصادية والمالية - في دولة الاسلام الاولى - في تحقيق النمو والرفاهية ومواجهة الازمات الاقتصادية ، حيث كان للحاكم القدرة والادارة المتطورة دورهما الكبير في اشاعة جو العدالة ورقابة ومحاسبة عمال الدولة ، بما يكفل بعث حوافز الافراد في نشاطهم الاقتصادى .

كما عرض البحث في ايجاز لتطور تنظيم المالية العامة للدولة الاسلامية الاولى منذ انشاء بيت المال - كأول وزارة للمالية في الدولة المذكورة - ليتولي كل مايتعلق بأموال الدولة من خراج وصدقة وأعشار وجزية ... الخ ، ثم انقسامه بعد ذلك الي دواوين نوعية يختص كل منها بشأن من الشؤون ، وكيف حددت مسؤولية عمال الجباية وأخضعت للرقابة والمحاسبة بما يكفل عدالة وملاءمة التحصيل الضريبي ، كما استخدم معيار الصالح العام لتوجيه انفاق أموال المسلمين .

وأخيرا ، عرض الباحث لجوانب التأثير الحضارى التي نفذ بها الاقتصاد الاسلامي بمبادئه واستقامته تجربته الي حضارات العالم المعاصرة - وخاصة حضارة أوروبا - التي احتكت بالمسلمين عند امتداد فتوحاتهم الي بعض دولها وعند بلوغ جحافل الجيوش الصليبية الي الشرق ، حيث شاهد الاوربيون من معالم حضارة الاسلام ما أدهشهم ومن مقومات الاقتصاد الاسلامي المتحرر من العبودية والاقطاع ما حفز وعيهم للتخلص من نظامهم الاقطاعي ، هذا فضلا عن تأثير الاسلام علي أوروبا في التقدم الفني للانتاج وفي كافة مجالات الثقافة والعلوم .

وفي دراسة وتأمل تاريخ الاقتصاد الاسلامي من منظور التقدم الحضارى ، ماينبه الاقتصاديين - مسلمين وغير مسلمين - الي جدوى ونجاح التجربة كما اكدتها أحداث الواقع التاريخي حيث كان قوام نجاحها ، روح الاسلام وقيمه الاخلاقية التي تفاعلت مع نظامه الاقتصادي .



المراجع

- ١ - ابراهيم ، حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ط ٩ ، ج ٢ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٥ م .
- ٢ - باركر ، أ ، تراث الاسلام ، ترجمة أحمد عيسى جزء ١ .
- ٣ - البهي ، د . محمد ، الاسلام والاقتصاد ، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨١ م .
- ٤ - جواثياين ، س ، د . ، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية ، تعريب وتحقيق د . عطيه القوسي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ١٩٨٠ م .
- ٥ - الجوزى ، أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزى ، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، تحقيق زينب القاروط ، دار ومكتبة الهلال بيروت ١٩٨٠ م .
- ٦ - الحبيشي ، أبو عبدالله محمد الوهابي ، البركة في فضل السعي والحركة ، دار المعرفة بيروت ١٩٨٢ م .
- ٧ - حسين ، د . وجدى محمود ، مذكرات في التطور الاقتصادي لطلاب جامعة المنصورة ، مكتبة الجلاء المنصورة ١٩٧٩ م .
- ٨ - حسين ، د . وجدى محمود ، السبق الحضارى للفكر الاقتصادى الاسلامي ، بحث مقدم الي المؤتمر العلمي السنوى الثالث ، المنهج الاقتصادى في الاسلام بين الفكر والتطبيق ، جامعة المنصورة ونقابة التجاريين ، القاهرة ١٢-١٩ أبريل ١٩٨٣ م .
- ٩ - حتي ، تاريخ العرب ، ترجمة مبروك نافع ط ٣ القاهرة ١٩٥٢ م .

- ١٠- الخضرى ، محمد ، محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية (الدولة الاموية)
ج ١ المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ١١- خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون ، المقدمة ، طبعة وافي ج ١ .
- ١٢- الخوارزمي ، مفاتيح العلوم .
- ١٣- الدورى ، د. عبدالعزيز ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، دار الطليعة
بيروت ١٩٦٩ م .
- ١٤- الرفاعي ، أنور ، الاسلام في حضارته ونظمه ، دار الفكر دمشق ١٩٧٣ م .
- ١٥- الزبيدى ، العراق في العصر البويهى .
- ١٦- الزهراني ، محمد مسفر ، نظام الوزارة في الدولة العباسية : العهدان البويهى
والسلجوقي ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٠ م .
- ١٧- السبكي ، طبقات الشافعية ج ٤ .
- ١٨- سيدو ، ل ، أ تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، عيسى الحلبي ،
ط ٢ ، ١٩٦٩ م .
- ١٩- السيوطي ، جلال الدين أبو الفضل ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محي
الدين عبدالحميد ، ط ١ ، المكتبة التجارية الكبرى ١٩٥٢ م .
- ٢٠- السمان ، محمد عبدالله ، الفكر الحضارى لدى فقهاء المسلمين ندوة الشباب
الاسلامي ، الاسلام والحضارة ١٩٧٩ م ، المجلد الاول .

- ٢١- شلبي ، د. أحمد ، الفكر الاسلامي منابعة وآثاره ، مكتبة النهضة المصرية
القاهرة ١٩٧٨ م .
- ٢٢- شلبي ، د. أحمد ، النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور ، أثر الفكر
الاسلامي فيها ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٦ م .
- ٢٣- شلبي ، د. أحمد ، السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، مكتبة النهضة
المصرية ، القاهرة .
- ٢٤- شلبي ، د. أحمد ، التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، مكتبة النهضة
المصرية ج ١ ط ١٩٧٤ م القاهرة .
- ٢٥- ضاوى ، محمد علي ، الحضارة الاسلامية بين التحدى والتعطيل ، الندوة
الرابعة للشباب الاسلامي ١٩٧٩ م .
- ٢٦- ابن عبدربه ، العقد الفريد ج ١ .
- ٢٧- ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز .
- ٢٨- عثمان ، محمد فتحي ، التاريخ الاسلامي والمذهب المادى في التفسير
الدار الكويتية ط ١ ، ١٩٦٩ م .
- ٢٩- عثمان ، محمد فتحي ، القيم الحضارية في رسالة الاسلام ، ندوة الشباب
الاسلامي : الاسلام والحضارة مارس ١٩٧٩ م المجلد الاول .
- ٣٠- عثمان ، محمد فتحي ، أضواء علي التاريخ الاسلامي ، مطبعة الجهاد بالقاهرة .

٣١ - عجمية ، د. محمد عبدالعزيز ، التطور الاقتصادي في أوروبا والوطن العربي
دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠ م .

٣٢ - عفيفي ، د. أمين مصطفى ، د. أحمد عبدالكريم ، تاريخ أوروبا الاقتصادي
مكتبة الانجلو المصرية ط ٢ ، ١٩٥٤ م .

٣٣ - فروخ ، عمر ، تاريخ الفكر العربي الي أيام ابن خلدون ، دار العلم
للملايين ، بيروت ١٩٧٢ م .

٣٤ - كار ، ادوارد ، ماهو التاريخ ؟ ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل ، المؤسسة
العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠ م .

٣٥ - متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد
عبدالهادي ريده ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٦٧ م ، ج ١ .

٣٦ - مسكويه ، تجارب الامم ، جزء ٢ .

٣٧ - مصباح ، د. أحمد ، تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ، دار الطباعة
المحمدية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م .

٣٨ - المقریزی ، طبعة الخطط ، ١٩٥٣ م ، ج ٢ .

٣٩ - الميداني ، عبدالرحمن حسن ، أسس الحضارة الاسلامية ووسائلها ، ط ٢
دار القلم ، بيروت ١٩٨٠ م .

٤٠ - Bhatia, H., History of Econ. Thought, Vikas House, Ghaziabad, India, 1980.

